كربلاء النجف

قصة واقعية جرت أحداثها على المواطن السعودي

محمد قدم

قصة واقعية جرت أحداثها على المواطن السعودي

محمد فندم

مقتبس من مذكراته المسماة بـ

«القطيفي وصحراء النجف»

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تاسیس ۱۳۷۴

بسم الله الرحمن الرحيم

الاســـم : محمد حسن محمد فندم

الجنسيــه : ســـــعودي

جهة القدوم : العـــــراق

مقر الاقامه : القطيـــــف

لمن يهمه الامر

المبين هويته بعاليه أحد افراد الشعب السعودي والذي كان ضمن الاسرى المسلّمين من العراق يوم الخميس الموافق ١٥/١٢/١٤١١هـ ولا يوجد لديه أثبات رسمي ولغرض ايصاله الى مقر أقامته الدائم في منطقة القطيف أعطي هذا المشهد لتسهيل مهمتــه ونقله عبر وسائل النقل المتاحه من منطقة عرعر الى القطيف ومدة هذا التعريف اسبــوع واحد من تاريخـــه وحـــــــرر . ...

مدير شعبة القوات البريه بالمنطقه الشماليــه

الختم الرسمي .

قيادة القوات البرية المنطقة الشمالية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أولاً وآخراً وحده لا شريك له
وصلاته وسلامه على حبيبه المصطفى وعلى المرتضى
والزهراء
والحسن المجتبى والحسين أبي عبدالله وأبنائه التسعة النجباء
الأتقياء

سيّدي أبا عبدالله الحسين عليه السلام
أهدي إلى مقامك الشامخ هذا الكتاب
الذي يسجّلُ صورةً من مآسي الظلم والإضطهادِ
في أرضِ شيعتك وشهادتِك (العراق الجريح)
راجياً أنْ تنظرَهُ بعين الرّضا والقبول.

٢٩ / جمادى ٢ / ١٤١٥

المقدمـــة

الحمد لله على جميع نعمائه
والشكر الجزيل على نعمة أوليائه محمد ﷺ

كثيراً الذين طلبوا مني أن أكتب ما جرى عليَّ وان أصف الحوادث المرعبة في عراق الظلم ... والدم ... والجرح ... والموت ... وذلك عقيب قمع الانتفاضة الشعبية العراقية، وبالتحديد في الثالث من شهر رمضان المبارك ١٤١١ هـ.

حيث كنت أحد الطلاب المهاجرين للنجف الأشرف، المقيمين في مدرسة الآخند الكبرى.

فرأيت من الواجب عليَّ أن أكتب تلك الحوادث، وأسجل تلك المواقف التي كادت النفس فيها أن تفارق الحياة.

وذلك لأُمور..

١ ـ لأن أذكـر نـفسي ويـعرف الآخـرون عـظمة الله سبحانه، وكيف تغوص رحمته للغارقين في الموت، وان الارادة الالهية فوق كل ارادة، و﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1].

٢ ـ ليشتد ولاؤنا بأهل البيت عليهم السلام، حيث يجد القارئ فيها مدى عنايتهم بمن يتولاهم ويكفي أن تكون مصائبهم سلوة المصابين، وبلسماً للجراح في عمق المصاب.

٣ ـ أن نتمسك بهذا الحبل المتين الذي ما خاب من تمسك به ألا وهو الصبر على المحن والبلايا وحتى في مواجهة الموت الذي هو لا شيء في قبال الصبر وعدم اليأس من روح الله.

١ ـ وَلاَ تَايئَسوا مِن رَّوحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَا يئَسُ مِن رَّوحِ اللهِ إِلاَّ القَومُ الكَٰفِرون[2].

٢ ـ وَاصبِر وَمَا صَبرُكَ إِلاَّ بِاللهِ[3].

٤ ـ أن يعرف القارىء المعاصر والأجيال القادمة أن هناك وحوشاً بشرية ضارية هي أشد على الانسان من أي وحش آخر مهما بلغ توحشه واشتدت ضراوته، وان

---

(١) يس / ٨٢

(٢) يوسف / ٨٦

(٣) النحل / ١٢٦.

الانسان إذا نزع لباس الانسانية الأمثل الذي ألبسه اياه الله سبحانه وتعالى يفقد كل القيم والمثل حتى الصغيرة منها.

٥ ـ أن يعرف القارؤن مدى الظلم الذي ابتلى به الشعب العراقي من قبل الأخطبوط الرابض على صدره، وما هذه الحوادث إلا جزء ضئيل من جانب صغير من ساحة الحوادث الدامية في العراق.

٦ ـ أن تُسجل هذه الحوادث كوثائق تاريخية تدين حكام العراق وحزبه البعثي، واني ما كتبت فيها حرفاً من وحي الخيال، بل هي حقائق ثابتة لمستها بيدي ودمي وشاهدتها بعيني وأدين الله بها امام محكمة الحق والعدل، والله شهيد على ما أقول.

ثم انني بعد أن كتبتها كما حَدثْت، وسجلتها كما وقعتْ، أشار عليَّ بعض الأخوة أن أعرضها على أحد الأدباء ليكتبها بالأسلوب الأدبي الروائي، فكان كما قال، حيث تبرع بهذا العمل الأخ الشاعر الأديب الشيخ عبد المجيد فرج الله، فكتب المذكرات بهذه الحلة الروائية القشيبة فجزاه الله خير الجزاء عني وعن الأدب والتاريخ.

محمد فندم

* * *

«شهدت بانك ملح العيون

و عيني ببعدك كيف تدوم»

40

(النهروان)

البحر...الاستاذ الكبير

لَملم الطعم جيداً في شوكة الصَنارة وأدار الخيط في الهـواء البـنفسجي ثـلاث مـرات ليـقذفه أخـيراً امـام قـاربه الصـغير عدّة امتار..

كانت الدوائر المتعاقبة التي هيّجها نزول الشـصّ إلى البحر. مخترقاً صفحة وجهه في هذه الساعة المتأخرة مـن الليل، وعـلى مـرأى مـن القـمر المكـتنز بـالضوء والوداعـة والحب، كانت ترسم على وجهه الاسمر دوائـر أخـرى مـن البهجة والرضـا... وما لبث إلاّ دقائق حتى عاد إلى ضـجعته الاولى وهو يكوّر راحتيه خلف رأسه مـمكّناً ظـهره الطـويل الخشبة المتوسطة من القارب.

من تحت نور القمر الذي بدأ يتأكل هذه الليالي وكأنّ فم الكون يقضم منه كلّ ليلة لقمةً مُضاءه حتى إذا لم يُبقِ منه إلاّ خيطاً نحيفاً آخر الشهر،ينتفض مسافراً إلى الطرف الثاني من السماء لتنزل عليه كلّ ليلة عـافية جـديدة تـمنحه النـمو والنشاط...تحت هذا النور البنفسجي الناعم بدا وجه مـحمد

فندم طويلاً فيه حدّة جميلة تشعرك برباطة جأش، وقوة تحمّل امام هذا البحر الكبير الذي افزع الملايين من البشر، ومن خلال بريق عينيه الصغيرتين كنت ترى سعادة غامرة لأنه يقتحم البحر وحده منذ سنوات، وهو الآن يكمل ربيعه الثالث والعشرين...

سرّح خياله بين اهداب القمر وهو يستذكر تلك الشبكة الصغيرة (السالية) التي اشتراها سراً وخبّأها في زاوية من سطح الدار، كان يخرج بها متسللاً عصر كل يوم بعد صباح مليء بضجيج الطلاب والدروس...

كان عمره يوم ذاك احدى عشرة سنة، ومن بين بيوت حي الكويكب كان يقطع الامتار الثلاثمائة التي تفصل بيتهم عن البحر، وهو يرنو بعين مشتاقة الى بيت قديم في حيّ الشريعة قضّى فيه اجمل أيام الطفولة الاولى...

لكنّ المدهش تعلّمه استخدامَ هذه الشبكة بسرعة قياسية، ومعرفته كذلك الأماكن التي يتواجد فيها السمك اكثر من غيرها، فكان يؤوب إلى البيت محمّلاً بصيد لا بأس بكثرته وقبل ان يطرق الباب يتذكّر سرّية عمله، فيعدو ليبيع اسماكه المختلفة على احد بائعي الاسماك في السوق القريبة ثم يعود بفرح غامر وهو يُخفي شبكته الصغيرة وراءه ليخبأها في مكانها الامين من السطح.

استمرّ على ذلك ثلاثة اشهر، حتى جاء يوم...

كانت وفرة صيده قد انسته السرّيّة، ولم يشعر في عودته إلاّ بوجه عمّه منصور يُطلّ من الباب عندما همّ بطرقه:

ـ ها محمد...

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام ما الذي تحمله؟

ـ هذه...هذه اسماك.

ـ اسماك؟ لماذا تشتريها وانا اجلب كلَّ يوم ضعفيها؟

ـ تريد الحق؟

ـ نعم (قالها بنفاد صبر).

ـ هذه الاسماك صدتها انا بهذه الشبكة...

وراح يُغيّب خوفه واضطرابه بفكّ الكيس الكبير الذي يضم السالبه والصيد...لكنّه مع ذلك كان يشعر بفخر عنيف حينما وقع بصر عمّه على السمك الوفير الكبير. وانفرجت شفتا العم منصور بعد طول صمت:

ـ ها، ويلك محمد تكذب عليّ؟

ـ لا والله يا عمي، متى؟

ـ تقول لي هذا صيدي، وأنت لا تعرف كيف تصيد...اتظن أنّ كلامك أقنعني، وانا اكثر اهل البلد خبرة

بالصيد؟

ـ عمّي، صدقني، فانا والله صادق.

ـ محمد...هذا فعل صياد خبير، لا فعل طفل يلهو بشبكة لاول مرة...

غالب محمد فندم احساساً ينبش صدره بالكرامة والثورة، لكنه هدأ وهو يَدخل الى كلام عمّه من زاوية فهم اخرى، فابتسم قائلاً:

ـ يا عم انا على هذا الحال منذ ثلاثة اشهر...

وقطعت سلسلة الذكريات سمكة السبيطي التي اكلت الطعم...

عجيب امر هذه السمكة الجميلة فهي ذكية رشيقة نادرة، تدخل المصائد (الحضرة) وتأكل حتى التخمة ثم تعود من فتحاتها بينما تلبث الاسماك الاخرى دون ان تعرف طريق الخروج. والغريب أنّ محمد فندم الآن قد اصبح اشهر صيادي هذا النوع من السمك الغالي فهو يعرف اماكن تواجده بالسنتمترات واوقات حضوره في أيٍّ من الاماكن بالثواني، على أنّ الاغرب من ذلك هو أنّ هذه السمكة تفضح نفسها مع الصنارة فحالما يدخل الطعم فمها وتُحسّ بوخزة ابرتها تبدأ بالقفز فوق وجه البحر تارةً ثم بالغوص الى اعماق قسماتها الزرقاء الداكنة تارة اخرى

منتبهةً صيادها حتى وان كان نائماً على كونها هي طارق باب ليلة العريض لم يكن محمد فندم منتبهاً الى خيوط تشابه تشدّ حياته بحياة «السبيطي» الذي يقضّي جلّ لياليه يتصيده بالشبك والشصّ في وقت معاً...

تأمّلها تحت ضوء القمر وهي تتوء بين اصابعه المبللة بندى السحر، بدت اصدافها فضةً ملتهبة وهي تفرش اشواكها وزعانفها بعصبية...وادرك صاحبنا لأوّل مرّة أنه يختلف عن هذه السمكة في جانب مهم من الحياة، انها طالبة كسول لا تتعلم من هذا الاستاذ العملاق درسه الاول: الصبر...

القاها في احدى الزوايا معربدةً غاضبة، بينما اعدّ طعماً آخر ورماه بالشص، ومكّن ظهره من دوسة الذكريات...

لئن نسي منصور ما رآه من ابن اخيه، فانّ القدر لم يكن راضياً بهذا النسيان كان عليه أن يخبر اخاه بتسلل ولده الى البحر خفية وهو يخبّئ شبكته عن أعينهم منذ ثلاثة اشهر، على أنّ القدر قد رضي تماماً عشية احد الايام حينما رفع محمد فندم رأسه المعروق ليجد بينَهُ وبينَ عينَيْ ابيه مسافة نصف متر والى جانبه عمّه الاصغر منصور. بهت الاب وهو يرى ولده مبلول الثوب وعلى عاتقه كيس املح،

ومن خلال مصراعي باب البيت كان اخوته يتكالبون لرؤية هذا المشهد بشماتة طفولية وخوف صامت...

كان للوجوم والارتباك والترقب تيّاران عاصفة وهي تقطع المسافات (الشاسعة) بين الاحداق والاذهان، ولم يصدق احد ان يضبط الاب اعصابه وهو يكلم هذا الصغير المتمرد:

ـ محمد...أين كنت؟

ـ يا ابه، عند...عند الساحل.

ـ ما عندك هناك؟

ـ ا...أتصيّد...

ـ تتصيّد؟...منذ متى؟

ابتلع ريقه الحاد النصل بصعوبة وقد قرّر ان يقول الصدق حتى النهاية:

ـ منذ ثلاثة اشهر وايام.

ـ والمدرسة؟

ـ الصبح للمدرسة...و...والعصر لا...

ـ يكفي...من سمح لك؟

وتدخّل العم في الوقت المناسب ليتحدث عن وفرة الصيد وهمّة الولد، وبوادر رجولته واحساسه بالمسؤولية، وبعد كلام كثير التقطت اذن محمد فندم جواز العبور الى برّ

الرضا من خلال كلمات ابيه الباسمة:

ـ زين، خلّه يخلّصنا من مصرفه...

وانتقل الى الصيد العلني وهو يقطع الطريق الى البحر عصر كلّ يوم مارّاً بالبيوت الجديدة التي تزحف باستمرار نحو البحر، حيث تشاد على انقاض امواجه المردومة بالحجر القاسي. ومن خلفه عيون حانيه تشيعه بنظراتها المتسللة من ثقب صغير في اعلى الباب الخشبي، دون أن يدري في تلك اللحظة حديثاً يدور بين عمّه وابيه سوف يحدّد مجرى حياته:

ـ انا اشوف يا ابا محمد ان تسمح له بمرافقتي في رحلاتي الى البحر، ليغزوه في عقر داره...

يضحكان، وهما يقلّبان الافكار والآراء. ولا يلبثان ساعتين حتى يخرجا معاً للحصول على موافقة مركز خفر السواحل باستصدار بطاقة لبحّار جديد لم يكمل بعد الثانية عشرة...

وقطعت سمكة اخرى صمت الذكريات «كانت من صغار السبيطي»... فارخى لها الخيط حتى وصلت الى يديه بقليلٍ من الالم والدماء...حدّق فيها طويلاً وهو يخلّصها من الصنارة ثم ابتسم هامساً:

ـ ها يا مزيزي...اين امك...لابدّ انها قلقة عليك...وداعاً

خـبّرني اهـلك أنـني اوقّـع لهـم عـلى مـعاهدة صـداقـة الى الابد...سوف يذهب عنكم هذا الصياد الشيطان ـ وداعاً في امان الله...هنيئاً لكم دفء البحر...ورماها بكل قوة الى افـواه الامواج. وهو مودعاً البحر، قائلاً:

ألا أيـــها البـــحر هـــذا الفـراق — سأبـــحرُ نـــحو عـــراق العـــلوم
فـــــعذراً إليك وليس الوداع — فماضيك لم تعفُ مـنه الرسـوم
تـــعلمت مـــنك صـــراع الردى — وعـلمتني الصـبر رغـم الهـموم
رأيت بـــعمقك سِـــرَ الحـــياة — وأيـــقنتُ أنك قـــلب كـــتوم
شـــهدت بأنك مـــلحَ العـــيون — وعـــيني بـــبعدك كـيف تـدوم

* * *

تصويب القرار

انفضت الجلسة الاسرية الثالثة دون أنْ يصدر الاذن بالموافقة على طلب محمد فندم...صحيحٌ أنّ من حقه أنْ يطمح، وأنْ يتعلم وأن يرفع رؤوسهم وهم يرونه يحمل علوم الدين ليبلّغها الناس المشتاقين إلى صوت الله والانبياء...لكن الفراق صعب، والعراق بعيد...

على ان اشدّ الاخوان انهماكاً بالتفكير في هذه المسألة عمّه عبد الرحيم الذي ذاق حلاوة الدراسة الدينية في النجف الاشرف وهو يتقلّب في طيات العصر الذهبي للحوزة...لكنّ بقايا الرعب ما زالت تركن في اعماقه وهو يودّع العراق هارباً غيرَ مصدقٍ بنجاته، وخلف ضلوعه آلاف الصور والاصوات التي لاتنسى وهي اليوم خلف الافق الندىّ لا يصلها الاّ زفير الملتاعين المشتاقين ولات حين لقاء...

كان خوفه على ابن اخيه يبتلعه حتى اخمص قدمه، ثم يتقيؤه ثانيةً ليرى فيه امتداده الذي من الممكن أنْ يكمل الشوط الذي تخلّف عنه مكرها...

فنزف كلماته بلوعة دون أنْ يعطي رأياً واضحاً قبل أن يسود الصمت على كل الوجوه...

أمّا امّه فقد انبجست ذكرياتها البسيطة القديمة التي مرّت عليها في سفرتها الى خراسان والى النجف، حيث سمعت من امرأة عرّافة ان ابنها الرضيع هذا سيكون عالما...تنهّدت طويلاً وهي تستعرض اشرطة متقاطعة من الذكريات لتبتسم اخيراً على كلماتها التي كانت تنطلق بصوت اجشّ وهي ترد على شكاوى الجارات اللاتي يتشكين من ابنها الذي يضرب ابناءهن باستمرار مغتراً بقوته العضلية (البسيطة) التي كان يداريها بالرياضة...وهي تصرخ ملتاعة... ويحك...لماذا يا ظالم...انت ظالم لا عالم»...

اما هو فقد لاذ بالصمت بانتظار القرار...

انه مازال يحبّ البحر...مازال يعشق ذلك العالم الجميل الخارج عن مدار الارض حين يكون وحده على جبين البحر والليل يطوق كلّ شيء وليس إلاّ هو والقمر وعيون الدجى الصفراء والخضراء والنجوم ولا ينسى ابداً شعوره الغريب المضحك حيث يُخيّل اليه انه عائم في ابريق، فتحته العليا هي القمر وجوانبه جدران الليل المطبق على المدى من كل جانب وماؤه هذا البحر الساكن الناعس على حفيف اقسام السحر...وما هو الاّ ذرة غبار صغيرة طافية عل سطح ماء

الابريق متوسّداً قشته الصغيرة التي يسميها اناس «الطرّاد» ويسميها آخرون «المركب» ويسميها غيرهم (قارب) ويسميها هو (النهروان)...

اجل ما زال يحب البحر... برغم المشقات والصعوبات التي يواجهها من خلاله إلا ان ذلك يزده عزاً وكرامة.

لكنه قبل هذا وذاك يحبّ ان يشبع هذا الفراغ الذي تبكي عليه فطرته البيضاء...يريد ان يتعلم كيف يعيش، كما يريد الله، ربه ورب الفطرة والبحر...

وانتظروا جميعاً الجلسة الرابعة.

طال الجدال...وتباينت الآراء...قبل ان يرسوا على حلّ وسط: يذهب محمد الى النجف شريطة أنْ يدرس فقط دون تدخل بايّ شيء وحين يحسّ ايّ خطر او تهديد يعود باقصى سرعة، وخلال فترة تواجده هناك يراسلهم باستمرار ويكتب لهم عن احتياجاته، وعليه ان يزورهم في فترات متقاربة...

وكاد يطير من الفرحة وقد علت محياه ابتسامة عريضة جداً وهو يهتف بكلمات اثارت الضحك والحنان على هذا الشاب الطموح...

وما هي الاّ أيام حتى تناوشته الاحضان الدافئة والعيون الدامعة والاكف الرحيمة مودّعة وفي القلوب ادعية

ضارعة لتناله عناية الله وتوفيقه ورعايته...

والقى نظرة اخيرة على استاذه الكبير وصاحبه الليلي، اتبعها بحسرة عنيفة اثارتها من قلبه ركام سنين واسعة جداً من الذكريات والصفاء والاحلام...

* * * *

العالم المجهول

الايام الاولى التي غمسته في النجف، انسته الصور الكبرى المستولية على اعجابه وتعجبه خلال الطريق وهو يفتح عينيه على عالم غريب الجمال.

كان يرى خيوطاً طاغية الوضوح تربط كلّ شيء من حوله بالقبة الذهبية المهيمنة بشكلها المخروطي على العيون والقلوب حيث تجثم بكل وقار عند حافة الجبل الذي ظنّ انه قادر على تحدّي الطوفان، بينما تراجع البحر منكسراً امام زحف الزمن القاحل فلم يبق منه غير جدول صغير يروي بساتين النخيل والخضروات الراكعة على اقدام السفح المُحتفظ ببقايا انحداره الشديد حتى الآن.

ومع كلّ هذا التغيير فما تزال الصحراء تلك تسمى «بحر النجف» على الرغم من ضراوة المفارقة. وانحناءات الصخور الجامدة المفتخرة بوقوف التراكمات الكلسية على وجوه التلال الصلبة التي كانت مغطاة يوماً ما بمياه الساحل الميت تسمى «الشواطي»، دون أنْ يسأل أحد أبداً: لكن أين

هو البحر؟ واية شواطىء هذه؟

كان خيط من الخيوط يمتدّ سلكاً طويلاً تنتظم فيه بنايات مزخرفة بفنّ اسلامي قديم ضمن هياكل الهندسة المعمارية التراثية وهي بمجموعها اشبه بحبات مسبحة او جمانات عقد ملون نادر الاحجار على طول ذاك السلك العريق المسمّى «مدارس الحوزة العلمية الدينية».

وخيط آخر مجاور بل ملاصق تماماً للخيط الأول يتصل بالقبة الفاقعة الاصفرار ثم ينزل من منتصف القبة الداخلي المزخرف بالمرايا في انكسارات لونية عجيبة ليلامس الضريح الفضي الذهبي المغطّى بالسندس الأخضر حيث ترفرف الملائكة على جسد وذكريات ثاني اعظم رجل في تاريخ الانسان. وعلى طول الخيط كانت صور واسماء اغترفت اجزاءً متباينة الكثرة من فيض هذا الانسان الذي لم يولد الزمن الذي يستحقه استحقاقاً كاملاً.

كانت تلك الصور تحتفظ في زيّها وشلالات لحاها البيضاء أو السوداء او المتداخلة اللونين بشكل الزيّ الذي طرحه ذلك العظيم حينما غادر الحياة الكابية ليعود ثانية إلى نقاء النور.

وهذان اهم الخيوط وان كثرت وتعددت وتلوّنت.

فصاحبنا كان يتطلع الى الخيط الأول بكل بناياته إلاّ

المغلقة بأمر من جهاز الامن) صارفاً أوقاتاً طويلة في التحديق بتعاريج خطوطها الهندسية وألوان طابوقها الازرق المنقوشة عليه عدة سور وآيات قرآنية واحاديث شريفة وابيات شعرية بخطوط مختلفة يطغى عليها خط الثلث، ويتعجب من كبر حجم الكتابات التي يبلغ طول بعض حروفها نصف متر بعرض بضع سنتمترات.

ثم توصله نهاية الخيط الى المعقل الذهبي حيث القبةالمهيمنة وعلى يمينها ويسارها منارتان ذهبيتان كبيرتان يخيّل للرائي انهما تتوثبان للانطلاق الى عيون النجوم وتحتها مسجد كبير يتوسطه الضريح الخالد، فيدخل محمد فندم زائراً ومصلياً لله بخشوع يتضاءل امام خشوع المرفرفة روحه في ارجاء المكان.

وبعدها يخرج الى استكشاف الخيط الثاني بكل افراده حيث امكنه ذلك الى أن يصل به الخيط الى القبة مرة أخرى.

كانت هاتان الرحلتان تتكرران باستمرار، حتى اذا جاءت ليلة الجمعة من كل اسبوع سافر صاحبنا الى قباب ومنائر واضرحة كربلاء ليعيش بينها بعضاً من ذكريات الامس الشاخص بكل قوة وعبرة وخلود.

ولقد ارتاح كثيراً من الامتزاج الحلو بين ذلك الماضي العريق وبين شخصيات تعيش في حاضرِهِ ولها قسمان من

ذلك العظيم بعلومها واخلاقها ورحمتها وتواضعها واشراق وجوهها وصدق حبها للناس، وكان كلّ ذلك يمنحه الاصرار على مواصلة الدراسة الدينية التي تربطه بهذه الوجوه والذكريات ربطاً مجنون الإحكام.

* * *

ذبول الفرحة

كانت أعظم فرحة لكنها لم تستمرّ...

الأيام الثلاثين التي حسبها طبيعية هانئة كانت مليئة بالترقب والحذر من قبل العراقيين الذين خَبَروا نظام حكمهم، وان استبعد بعض منهم الولوج في ورطة جديدة بعد محنة السنوات الثمان.

كان محمد فندم يعيش في بوتقة انصهار الماضي بالحاضر بضع مرات في اليوم، هي ساعات مجالس العزاء التاريخي التي تقام كلّ سنة في أول يوم من شهر محرم وحتى اليوم العاشر.

كثيراً ما خيّل اليه أنّ معركة كربلاء قائمة الآن، والصور التي يرسمها الخطباء في ذهنه عنها يكاد يراها واقعية امام عينيه الغائمتين بسحائب الدموع...

ومرّ اليوم الأول من المحرم...ومرّ الثاني...حتى مرّ التاسع وصاحبنا ينظر بعينين مقسومتين قسمين واحد للزمن القديم والآخر لهذا الحالي...حتى انه اجاب على اسئلة

صديق له بهذا الذهول حين ابتدره.

ـ ها شيخنا. سلامٌ عليكم.

ـ عليكم السلام، عظّم الله اجرك.

ـ واجرك...لكن...ظننتك نزلت الى البلد بعد العطلة.

ـ اية عطلة؟

ـ عجباً. اما تدري أنّ المدارس الدينية تكون عطلتها في شهري محرم وصفر؟

ـ المدارس؟ ...آ...صحيح، المدارس تعطّل، لكن المجالس هذا موسمها.

ـ اما تُقام في البلد عندكم مثلها؟

ـ مثلها؟ ...لا...انها مشابهة لصورتها بالضبط.

فابتسم وهو يكتم ضحكة عميقة:

ـ يا شيخ محمد...اراك تتكلم بتناقض.

ـ يا صاحبي انني ارى واشم معركة كربلاء حينما اكون هنا...تفهمني.

حـرّك الصديق رأسه بالايجاب ولم يفه إلاّ بتحية الوداع.

وجاء اليوم العاشر...

خرج كدأبه صباح كل يوم يريد المجلس الاول...

بدت الشوارع اقلّ ازدحاماً، والوجوه اعمق ذهولاً، مع

اصوات مذياعات صاخبة بالموسيقى المرتفعة الايقاع، وصاحبنا لم يلتفت الى أيّ شيء غير طبيعي، حتى وصل قريباً من مقصده فإذا بصوت يأتي من خلفه.

ـ الى أين؟

التفت بهدوء، وحدّق جيداً بوجه احد الطلبة، كان ماداً نصف جسمه بين مصراعي الباب، فرجع خطوات ثم سلّم وردّ عليه الطالب تحيته بقلق بالغ دفعه إلى أن يقول بصراحة:

ـ اين انت رائح؟ اما ترى؟ ...اما تسمع؟

ـ أرى؟ اسمع؟ هل هناك شيء...

فردّ عليه بعصبيه وتهكّم...

ـ لا عيني سلامتك، لا شيء، سوى ان الجيش العراقي احتل الكويت ليلة البارحة.

ـ صحيح؟ ...العراق احتل الكويت؟

ـ بل قل صدام احتلّ الكويت.

ـ لا اله الاّ الله...عن اذنك...

ـ الى اين؟

ـ انى مجالس العزاء.

ـ ايّ عزاء؟

ـ عجيب امرك، نسيت ان هذا اليوم يوم العاشر من

المحرّم...

ـ لم انس...لكنني اريدك ان لا تنسى ان هذا اليوم يوم احتلال الكويت.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثـم مـاذا...لا تـعلم؟ ...حَسَـنٌ. سأتـولى تـوضيح المـصيبة، فـالكويت يـا عـزيزي مـن دول مـجلس التـعاون الخليجي، وانت مواطن في اكبر تلك الدول، وهي امّا ان تُحتل او تدخل الحرب، فتكون انت وامثالك رهائن سهلة لممارسة الضغط...فهمت؟

اتضحت لمحمد فندم بعض جوانب الخطر المحدق، وازداد القلق وهو يسمع من مذياع قريب بياناً عسكرياً استُدعي فيه الافراد المتسرحون من الخدمة العسكرية للالتحاق بخدمة الاحتياط وبين تارة وأخرى يُعاد البيان الأول

ومـرّت الاشـهر بأيـام تـزداد ثـقلاً وكآبـةً وجـوعاً باستمرار، ومع أنّ محمد فندم كان بعيداً عن حجزه رهـينةً

لأن الموقف السياسي لا يتطلب ذلك، وبعيداً عن اشباح الجوع والعوز، إلاّ أنه كان يرى بوضوح آثار التغيير المفاجيء على وضع العراق، الذي كان مؤهلاً للرّفاهية الاقتصادية العجيبة.

واستمرت الدراسة الدينية بقوة أكثر من السابق بكثير، فالنظام الحكومي يمرّ بظرف صعب الهاه عن مطاردة المتدينين والدارسين العلوم الاسلامية، فازدادت اعداد الطلبة الذين يخافون أن يتخطفهم الطير ازدياداً ملحوظاً وكأنّ الحوزة العلمية تريد استعادة جزء من عافيتها بعد الضربة القاسية جدّاً التي تلقتها مطلع العقد الثامن من هذا القرن.

وتابع صاحبنا دراسة مقدمات علوم الفقه والعربية، على الرغين الخفي المنبعث من الخيوط المتصلة بالخلود، وهو يكثر من التردد على بيوت علماء الدين ومجالسهم العامة، دون أن يفتّ في عضد اصراره على البقاء في النجف الحاح عدد من زملائه بضرورة أن يرافقهم في الذهاب إلى بلدهم عن طريق الحدود البرية مع الاردن.

وعبثا راحت محاولات الشيخ نزار في اقناعه بالعودة. فظل معه وجماعة من الزملاء بانتظار تغيير الاوضاع لتعود الى وضعها الاول.

* * *

محاولات فاشلة

في مساء بارد طُرق باب الغرفة، فنهض محمد فندم متثاقلاً واستدار الى الباب مخلّفاً وجه المدفأة الكهربائية وراءه بعد طول تفكير واستذكار وضع يده على المفتاح، قبل أن يديره اطلق حسرة كانت آخر شيء من مخلفات افتراش الذكريات ثم فتح الباب غير مكترث بالسؤال عن الطارق، فاطلّ وجها السيد الخضراوي والشيخ (م ـ ع) وعليهما ظلال غامضة لم تنقذها اشعة المصابيح المبثوثة في كلّ مكان من مدرسة (الآخوند) الحديثة الترميم، فتبادلوا السلام والمصافحات حتى استقر بهم المجلس...

سرّب الشيخ (م ـ ع) من فوق عويناته الشفافة نظرات في ارجاء الغرفة وكأنّه يراها لأول مرّة، ثم لملم حاجبيه قليلاً قبل أن يطلق صوته الأخن:

ـ ها يا شيخ الى هذا الحين وانت مصرّ على البقاء.

ـ «انا لا افكر في النزول الآن»

ـ اما سمعت اخبار الليلة.

ـ كلا...

ـ الحديث عن الحرب والتحشدات والاستعدادات يستولي على جلّ نشرات الاخبار.

فتوقف محمد فندم عن البحث عن كوب آخر ليصب فيه الشاي الحار الداكن، ونظر بعمق الى وجه الشيخ (م ـ ع) وانبعث قائلاً:

ـ هذا امر طبيعي...وإلاّ، اتراها لعبة صغار؟

ـ كل هذا وانت جامد...(قالها باحتقان شديد). فرد عليه بغضب لم يقدر على كتمانه:

ـ جامد؟ ما هذا يا شيخنا؟ انت تطلق النار في داري.

ـ نعم والله سوف يطلقون النار في دورنا، وانت ترفض النزول.

ـ تريد الحق؟

فاستوى في جلسته وحدّق السيد الخضراوي باهتمام بالغ قائلاً:

ـ ومن ذا الذي لا يريده.

ـ لا..كثيرون جداً لا يريدونه. بل يحاربونه حدّ الجنون.

ـ آه...لا تبتعد كثيراً...نحن نريد حقّك انت.

وابتسم حتى ظهرت جلّ اسنانه. فأجابه صديقه

العنيد:

ـ الحق انني لا أريد النزول، وان أقاربي الآتين للزيارة قد الحّوا عليّ كثيراً في هذا الأمر. الا انني رفضت حتى عادوا ادراجهم.

وتبادل الحاضرون نظراتهم بصمت صاخب النقاش، حتى تكلم السيد الخضراوي وكأنه يطلق آخر سهم في كنانته:

ـ حَسَنٌ...لا نطيل الجدال. الافضل أن توكل الأمر الى الاستخارة، فليكن الحَكَم اختيار الله لا اختيارك انت.

ـ آهٍ...طالما جعلتم الامر بيد الله. فلا وجه للاعتراض فالله لا يختار الا الخير. وساد صمت وتفكير. وانفض المجلس على وعد بالاستخارة.

وفي الليلة التالية كان صاحبنا في كربلاء حتى ارتوى من الزيارة والصلاة والدعاء، وقبل أنْ يخرج من روضة الجراح المتشابكة المرائي ضمن خطوط الهندسة والزخرفة والخط العربي الأصيل، عرّج على المسجد المقابل للضريح من الجهة الموازية للقبلة، فسلم على السيد (عز الدين) الذي أمّ صفوف صلاة العشاء وحدق في جبهته العريضة وهو مرسل حنك عمامته السوداء باتجاه صفحة وجهه اليسرى وعلى امتداد لحيته الكثة الكثيرة السواد تحت وجنات بيضاء

ضاربة الى الحمرة الوردية. وسأله أن يستخير الله في امر نزوله، وناوله المصحف بعد تقبيله، فتلى السيد آيات يهمس بها همساً ترددت لها شفتاه بتتابع سريع ثم فتح المصحف، وصمت قليلاً حتى قال:

ـ ابني؛ الخيرة نهي...

كانت النتيجة مثيرة لصاحبيه أكثر منه. لكنهما اعادا حواراتهم السابقة مع الزميل الساكن، حتى جعلاه يذهب في اليوم الثاني الى بيت (الامام السيد عبد الأعلى السبزواري) فاستقبله ولده السيد محمد ـ كعادته في استقبال كل شخص ـ بوجه مبتسم ونبرات حانية وتواضع كبير فادخله غرفة صغيرة على اليمين ناصعة البياض ورائحة كتب مطبوعة حديثاً تصل من الغرفة القريبة التي امام حوض الماء الحديدي، وكرر ترحيبه به وسأله عن احواله. فانشرح صدر صاحبنا لهذا الاستقبال الصادق، وبعد قدح شاي حارّ التفت الى السيد محمد طالباً منه أن يوصل لابيه رغبته في الاستخارة بالقرآن الكريم حول بقائه...ولم يلبث الابن حتى عاد قائلاً:

ـ السيد يخبرك أن البقاء خير من النزول.

فاستأذن للذهاب فتبعه السيد محمد حتى أوصله إلى الباب.

وبعد ايام استخار له (الشيخ ع ـ س) حين تواجده في مدرسة (الآخوند)، فكانت الخيرة لا تشجع على النزول...

«وكان هذا هو أساس اصراري على البقاء في النجف الأشرف ليس كرهاً للنزول، بل تقيداً بهذه البرقية السماوية. ومع ثقتي بكلام الله و﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾»[1].

(١) البقرة / ٢١٥.

غربان الجحيم

ثمة لغط وجدال عند ساحة المدرسة قرب حوض الماء الاسمنتي الذي يحتضن بسكون بضع سمكات ملوّنة لا تدل هيآتها على انها تشعر بكآبة الحبس.

فتح محمد فندم باب غرفته لعلّه يعرف ما الذي جذب هؤلاء الطلاب من غرفهم في هذه الساعة المبكّرة من الصباح ليتحلقوا بدون انتظام كثير حول مذياع أسود لم يُنزع من جلده بعد...

خطا باتجاههم مسلّماً، وفي عينيه سؤال يفضح احاسيسه المشوشة بآثار نوم طويل...سأل وهو يجاهد تثائبة سائداً فمه براحة يده اليسرى، بعدما ارسل اليمنى الى ابعد نقطه تصلها وهو يتمطّى كأنّه خارج من ليلة عرس، كان يتثائب بعمق اضحك المتجادلين جميعاً قبل أن يعاودوا ضحكهم بقوة أكبر على كلمات الشيخ سلمان:

ـ ها عريس، صحّ النوم...

فأجاب وهو يركّز نظرات معاتبة في ارجاء وجهه:

ـ صبّحك الله بالخير.

ـ تدري؟

ـ ما اريد أنْ ادري.

ـ اذن ستكون خسارة احدنا باهضة...خَبَرٌ بالملايين.

تجاهله محمد فندم بدون اكتراث، وهمّ بمواصلة السير الى المغاسل فتعلق به محدّثه قائلاً بغيظ و خيبة:

ـ تعال...الى اين...يا رخص الاخبار في سوقكم الكاسد.

ـ دعني وشأني، قبل أن تشرق الشمس فتصبح صلاتي قضاء، عن اذنك.

ـ آهٍ لن ادعك...الخبر يحفر في قلبي...

ولذّ لصاحبنا أن يعبث به أكثر، فاتجه الى المغاسل مشمراً اكمامه وهو يلقي وجهه امام تيار الحنفية البارد، ولم يلبث صاحبه إلاّ مقدار بلع الريق، حتى صرخ بصوت غطى على خرير الماء واصداء تقافز قطراته المتطايرة في كل اتجاه قريب من قعر المغسلة:

ـ البارحة ابتدأ القصف الجوّي الامريكي.

ـ فعلوها؟

ـ الله يستر.

ـ الله يستر منذ البداية. لكن الانسان يكفر، غباء.

غمغم محدثه شاكياً من برودة تلقيه الخبر، وعاد إلى

أصحابه ينقل اليهم تفاصيل آخر نشرة أخبار سمعها.

* * *

صحيح أن الغارات الجوية كانت على اطراف مدينة النجف إذا لم تُطلق نيران ضد الطائرات فتردّ بالصواريخ، إلاّ أنّ الأخبار التي يتناقلها الناس عن ضراوة القصف في مدن العراق الاخرى كانت مرعبة جداً، وطفت موجة كآبة عارمة على وجوه الناس في كلّ مكان وهي تترجم مأساة مزرية فيبدؤها حاكم ظالم يريد أن يشغل الرعية بأي شيء بعيد عن كرسي حكمه، ثم البقية معروفة.

الدمار الكبير لم يسحب ظلاله بعد عن تفكير الناس المحكومين بالرعب أكثر من ثمان سنوات فضلاً عن ظلاله الصخرية التي خيّمت على وجه التاريخ والاقتصاد والاجتماع العراقي، فاذا بدمار أكبر يطبق على كل الانحاء.

وتطول ايام القصف الجوي. عوائل تموت، واخرى تسافر وغيرها ضاع أطفالها في شعاب اللالقاء، وبين الانقاض كانت وجوه تجمّد عليها الدمع وهي تدفع ثمن سرقة لم تقترفها.

هكذا نحن يا أخاه، تختلط دماؤنا كل يوم بتراب جديد. ومن بين انامِلنا تهرب كل ملامح المستقبل كاننا نجمع الماء بأكفٍّ أصابعها مفتوحة أبداً، وهي تُلفح في كل حين بزفرات

أدعية قريبة جداً من اشداق الموت الضاغطة على احداقنا وارواحنا و امانينا الوردية الموؤدة.

كانت ابتهالات اصحاب القلوب العَلَوية تضوع الى السماء ندية بدموع لم تفارق السلام والحب والطيبة منذ أن سألت من محاجرها الغضة في أول ساعات الولادة وحتى اليوم، وما زالت صورة السيد (م ـ ك) تتترادى كلّما مرّت خواطر الحرب على الذاكرة المتعبة حيث تتخضب لحيته البيضاء بالدمع الحارّ وهو يضع اليسرى على قلبه العجوز المضطرب الخفقان بينما يرسل اليمنى بقلمها الى ورقة جديدة يضيفها الى مؤلّفاته وشروحه على بصيص نور خافت منبعث من مصباح نفطي قديم كان قد ودّعه العراق قبل عقود، وهو اليوم يعود بكل حزن وانكسار الى بلاد حبلى بالمفاجأت والعجائب.

* * *

الانفجار الكبير

كان الضغط الاستبدادي شديداً جدّاً منذ مطلع العقد السابع حتى وصل إلى درجة مجنونة أول العقد الثامن

ثم تلتها فترة رهيبة جداً رافقتها حرب شعواء غطت وجه الاحداث. والحق أن الحكم في العراق كان يقاتل على جبهتين: الأولى جبهته الشرقية ضد ايران. والأخرى الأهم: جبهته ضد اماني ومطاليب الشعب.

وعلى طول درب السنوات العجاف كانت السلاسل الحديدية تمتد من أعلى قمة جبل في العراق وحتى اعمق وادٍ سحيق، ومصب نهر يلفظ مياهه بحزن كبير، سلاسل اميبية تتكاثر وتنمو بسرعة رهيبة مقززة.

هذه الصورة لم تكن أبداً واضحة مثل هذا الوضوح في ذهن محمد فندم على الرغم من كثرة أحاديث عمّه عبد الرحيم الذي عايشها حتى ذهل منها ولم يعرف كيف يتحدث عنها...

كانت أحاديث الانسحاب تلوكها الافواه بالشتائم على

المسببين ثم تحولت الى سباب عنيف مباشر لصدام مع أن الناس تقرأ في أول واجهة زجاجية لاية دائرة أو مكان حكومي وغير حكومي ان عقوبة الاعدام هي الجزاء العادل الوحيد لمن يتحدث بسوء عن شخصية السيد الرئيس أو يتعرض لها بالانتقاد والانتقاص، ولم تلبث الفورة حتى تجمعت ابخرتها تحت الغطاء السميك بكثافة لا يمكن أن تتصور إلاّ إذا ضغطنا الغلاف الغازي المحيط بأرضنا الرحيمة في كرة طفل، ثم كان الانفجار الهائل الذي سمع أول ما سمع في أقصى الجنوب حيث تجثم البصرة على وجه الخليج حزينة منشورة الشعر متطايرة بقايا السعف نحو السماء بجنون واحتراق. وسرعان ما امتدّ ليلتهم كل الأرض الجنوبية والوسطى حتى اطراف بغداد الجنوبية، فيما سمع انفجار آخر غطى المناطق الجبلية الشمالية برمّتها.

كان عجب محمد فندم طويلاً وعميقاً وهو يسمع في كل ساعة عن سقوط محافظة أو قضاء أو ناحية بأيدي الثوار، ومع انه لا يعرف مواقعها وأهمية كلّ منها إلاّ أنه استقرأ كل ذلك في طيات نبرات المتكلمين وقسمات وجوههم التي تذوق الحياة من جديد بعد ربع قرن كامل، فيما اكتسبت زيارات الضريح اجواءً رائعة جداً حيث يتجمع

الناس باعداد متناسقة مرددين أناشيد الرثاء على وقع طبول الصدور التي تهوي عليها الأيدي باتساق جميل.

كان صاحبنا يقضي جلّ وقته في التجوال على امتداد شوارع النجف التي سيطر عليها الثوار بشكل كامل غاصةً بالمسلمين والمتظاهرين والسيارات التي تنقل المتطوعين إلى نقاط المواجهة على أطراف كربلاء والحلّة، فبمجرد أن يقول «الشيخ حمزة» عبر مكبرات الصوت داخل صحن الحضرة العلوية «على أصحاب القاذفات التوجه إلى باب الطوسي فوراً» يغصّ شارع الطوسي كلّه بالمتطوعين وحين تمتلىء السيارات يتطوع أصحاب سيارات أخرى بنقل بعض المتبقين، وعبثاً تروح محاولات المسؤولين في اقناعهم أن الموقف لا يستحق إلاّ نصف العدد أو ربعه.

وطالما كان يدخل إلى المساجد التي تحيط بالضريح حتى يشبع من الصلوات وقراءة القرآن والابتهال بالأدعية والأذكار.

وحين يؤوب إلى غرفته لا يستطيع البقاء والدنيا (مخبوصة) في الخارج. لكنه متعب لابدّ له من الاستلقاء، فيمدّ يده بحركة لا ارادية إلى المذياع ليحرك مفتاح انتقاء المحطات حتى يستقر على صوت حماسي ينطلق هادراً «هذه اذاعة الثورة الاسلامية في العراق ـ مركز عمليات

النجف الأشرف».

وللمجالس الحسينية جمالها الخلاب وهي تقام في قلب الحضرة المقدسة ومكبرات الصوت تغزو الشوارع القريبة من المكان حتى يكاد سكان المدينة يسمعون أصواتها في كل مكان.

لقد عاش محمد فندم أياماً من أسعد أيام العمر لا يراها تتكرر أبداً بالصور العفوية الاولى نفسها، على الرغم من أن الجوع يعض الناس فيبيتون ليالي عديدة لا يذوقون الا قليل طعام يرافقه كثير صبر وجهاد واستشهاد...

❊ ❊ ❊

فجائع الصواريخ

منذ يوم الاربعاء سُمعت أصوات انفجارات عنيفة، كانت متقطعة على وجوه الساعات الأربع والعشرين، ورأى الناس اشلاء أطفال ورجال ونساء يُصلى عليهم في صحن الحضرة المقدسة قبل أن يُطاف بجنائزهم حول الضريح، وعرف محمد فندم أنّ هؤلاء ضحايا الصواريخ بعيدة المدى، ثم لفت انتباهه كثرة النداءات التي تلملم اصحاب القاذفات والهشاشات عند باب الطوسي المؤدي من باب الحضرة المقابل لباب القبلة باتجاه المقبرة العريقة مع ان الحماس لم يفتر لحظة واحدة وهو يشمخ في نظرات عيون تسهر الليل وتقاتل في النهار على الرغم من قلة الزاد وانقطاع التيارين المائي والكهربائي مع احتمالات قوية تهدد بانقطاع التيار الهوائي من ضربة كيمياوية محتملة.

المحاولات الأربع الأولى الرئيسة لاحتلال النجف كانت فاشلة تماماً، والمعارك تدور رحاها على جبهتي كربلاء والحلة. بينما تنعم النجف بأمان كبير. حتى أن

الطائرات السمتية ما كانت تخترق دفاعات المدينة الجوية. والتي كانت سيدتها صواريخ ستريلا، حيث ان اعمق توغل حققته احداها كان قرب فندق السلام ذي الطوابق الستة قبل أن يبددها نثاراً أسود صاروخ انطلق من على كتف مجاهد يعتلي صهوة الفندق العليا.

وانقضى الاربعاء على غير العادة، ثم جاء الخميس بأصوات اكثف وارعب حتى اصبحت الشظايا كالمطر المنهمر، كانت اقتل نقطة ضعف في ثورة البسطاء انّ اسلحتها خفيفة ومتوسطة، ولم يكن في صفوف مجاهديها من يستطيع تشغيل دبابة ويقاتل بها ولهذا ظلت عشرات المدافع والدبابات قطعاً حديدية هامدة، إلاّ ما ندر.

كانت المدافع والصواريخ بعيدة المدى توزّع شظاياها على طول المدينة وعرضها بعد سقوط كربلاء والحلة (بابل) بأيدي الجيش، الذي يستعد لدخول المدينة بالدبابات المتطورة من محورين، محور طريق كربلاء ـ النجف ومحور طريق الحلة ـ الكفل ـ الكوفة...

ومرت ثلاثة أيام بلياليها والقتال محتدم بين ثوار باسلحة خفيفة وبين أربع فرق عسكرية اغلب افرادها من الحرس الجمهوري.

وتسقط عدة نقاط مهمة بأيدي الجيش، ولا تبقى

سوى أربع نقاط فقط كانت فيها المقاومة عنيفة جداً الأولى نقطة الحضرة المقدسة التي فزع اليها الرجال والنساء والاطفال، وهي تتعرض للقصف المستمر. والثانية مقام صافي صفا اليماني والثالثة بيت الامام ابو القاسم الخوئي والرابعة مقبرة النجف.

وتناهى الى سمع محمد فندم دخول أربعة آلاف جندي الى قلب المدينة، وان ظلت نيران المقاومات تتوالى بعتاد آيل إلى النفاد.

فذهب من المدرسة الى بيت أحد الزملاء، لكنّ انقطاع الماء جعل من المستحيل على أحد أن يبقى في بيته بانتظار أنْ يموت من العطش، وما هي إلاّ لحظات من دخوله البيت حتى سمع تحليق الطائرات المروحية التي تبث نداءً مقتضباً: «على أهالي النجف اخلاء المدينة والتوجه الى طريق كربلاء».

وهباءً راح صاروخ قاذفة انبوبية حاول اصطياد احدى الحشرات الحديدية المتخبطة في السماء بانتظار خروج دفعة جديدة من الناس لتحصدهم بنيران مدفعها

الرشاش...

وخرج كثير من الناس. قتل بعضهم في الطريق، ونقل الآخر إلى معسكرات مؤقتة بانتظار المجهول.

فيما هرع بعضهم إلى منطقة الشواطي، وبعض باتجاه طريق المشخاب، وبعض لاذ بالقبور واللحود وهو يأنس بسكون الموتى لأول مرة في تاريخ الانسان الحي.

ولم يلبث صاحبنا ان خرج من بيت زميله قاصداً المدرسة فإذا هو يُفاجأ بقطة مسكينة ادخلت رأسها بعلبة صغيره من الصفيح ولم تستطع التخلص منها. فراحت تعدو ملتطمة بالجدران جهتي اليمين والشمال. كان المنظر مثيراً، لكن الخوف والظرف كانا يحطمان أيّ تفكير به. ولسنا ندري كيف استحوذت حالة القطة البائسة على دائرة تفكير محمد فندم فراح يعالج اخراج العلبة بكل ما اوتي من قوة حتى كادت رقبة القطة تنخلع عن جسمها النحيف الملوث بمياه آسنة وطين، وهرولت القطة في الهواء معلّقةً بين يديه بينما وجدت أظفارها أكثر من مجال في عضديه فالقاها وراح يمسح دمه المتدفق من أحد الشقوق. اما هي فظلّت متخبطة في كلّ اتجاه دون أن ترى شيئاً.

كان جالساً على صخرة كبيرة في هذا الزقاق الذي ينتهي طرفُهُ عند شارع السور المحيط بالمدينة وتمكث

رؤوس النخيل ضئيلةٌ أسفل منه، فإذا بالقطة تتقدم باتجاهه في حركة ذكّرته بخمشه المخالب قبل أن يتدفق دمه فنهض من الصخرة، وما تمت استدارته حتى ضربت رصاصة آتية من جهة الشارع المكان الذي كان جالساً عليه من الصخرة فتطاير منها تراب وفتيت حصى ناعم.

طفا ذهول على وجهه بضع ثواني ثم اكمل استدارته، لكنه لم يهرب باتجاه المدرسة، انما راح يعالج العلبة مرة ثانية حتى ثقبها ثقبين كانا كفيلين بتمكينها من الرؤية والشرب فقط.

«لست أدري يا أخاه لماذا يتأصّل الحبّ والرحمة في نفس انسان ما إلى هذا الحدّ، بينما تجفّ عروق انسان آخر عن أي لحساس انساني، وكأن هذه الدنيا لم تخلق ليعيش عليها الانسان».

* * *

مرتان في وجه الموت

اشتد العطش بمحمد فندم وهو لا يجد قطرة واحدة في طول المدرسة وعرضها، وتذكر صديقه الشيخ نزار الذي يقطن في بيت قريب فاسرع إلى الباب ليُسلم نفسه إلى زقاق صغير على اليمين، وما هي إلاّ لحظات قليلة حتى وصل البيت، وحين رفع يده ليدق الباب انفتح المصراع واطلّ صديقه ضجراً خائفاً، وبيديه قربتان مملوءتان هواءً فقط، وبعد محاورة قصيرة اتجها معاً إلى الشواطي.

كان عليهما بعد اجتياز شارع السور ان يهبطا منحدراً مائلاً بحدّة قليلة ثم يمشيان عدّة دقائق ليصلا مجرى النهر الصغير المليء بماء لونه رمادي داكن، لم يكن صالحاً حتى لشرب الحيوانات.

مَلآ قربتيهما ثم عادا ادراجهما وهما يصعدان إلى الشارع بصعوبة وتأوّه، ووصلا اخيراً الى الشارع الذي يستقبله اغلب الناس بحركة بندولية جهة اليسار واليمين قبل العبور، وليت صاحبنا لم يلتفت الى اليسار حيث توقف

البندول في منتصف دورته على رجال طاعنين في السن ومعهم اطفال ونساء قد استوقفهم رجلان مسلحان احدهما يرتدي ملابس مدنية اما رفيقه فكان من الحرس الجمهوري.

كانت اسلحتهما موجهة باتجاه هؤلاء الواقفين صفاً حزيناً تفوح منه روائح الدموع وللحسرات وعَرَق الخوف، فاخترق صوت غليظ ارجاء المكان:

ـ انتما...توقفا، ثم اقبلا مهرولين ويداكما على رأسيكما.

كان كلّ شيء يوحي بامتثالهما للامر في الوقت الذي همس محمد فندم قريباً من اذن الشيخ نزار: «حافظ على قربتك ولنمش باتجاههم ونحن نسرق مَيْل الخطى لنكون في منتصف الشارع، بعدها يجب انْ تركض بسرعة اعلى من سرعة الطلقة». وهذا ما حدث فعلاً، فانهمر الرصاص خلف ايديهما وفوق الرؤوس، لكن الله سلّم.

حيث دلفا الى الزقاق تمتم صاحبنا بخشوع: «يا رب ستركَ، هذه اخرى... الله يستر من الثالثة».

وجاءت الثالثة

كان محمد فندم فوق سطح المدرسة المؤلفة من ثلاثة طوابق ينظر مرة الى جهة الشواطي حيث يستوقف عدد من

المسلحين كثيراً من الناس الهائمين على وجوههم صوب منخفض الجدول. فيسددون الى صفوفهم سبطانات اسلحتهم الهشاشة ليمطروهم بوابل من الرصاص.

ويقصر مدى نظره مرة اخرى ليرى افواج الناس المذهولين وهم يتقاطرون من الازقة المتشابكة في منطقة «الحويش» قاصدين هذه الجهة اللعينة لعل فيها درجة من الامان ولو قليلة تحت احضان النخيل امام اذرع الصحراء التي تمتد حتى حدود السعودية كان يصرخ باعلى صوته: عودوا من حيث تجيؤون...لا تهربوا من شظايا عمياء قد تصيب وقد تخيب. فان امامكم على الشارع رصاصات تعرف طريقها القريب الى الصدور بدقة فائقة...

ثم يحاول تحذير اكبر عدد ممكن من الهائمين فيضع رجله على نصف طابوقة بارزة من الجدار، فيبدو رأسه من اعالي روشن المدرسة وهو يحمل فكّين ينثران الكلمات المحذّرة المضطربة ورجلاه ترتعشان فوق الطابوقة التي تنوء بحمل اثقل من طاقتها.

كان هناك صوتان متلاصقان في ثانية واحده:

احدهما صوت تهشّم الطابوقة والذي كان موصولاً بارتطام جسد محمد فندم على السطح.

اما الثاني فكان صوت رصاصة تعرف طريقها الى

جبهة صاحبنا بدقة فائقة...

ذهـول ليس بـالقصير وعـينان تـتطلعان بـبطىء الى دائرة الحدث، حتى تستقرا اخيراً على الفتحة التي اسـتقرت فـيها الرصـاصة عـلى الجـهة المـقابلة للـروشن الرمـادي المستطيل.

وهوى محمد فندم بكل مـا يـحمل مـن هـيكل مـاديّ معنوي ساجداً لله شكراً ممكناً جـبهته مـن ارضـية السـطح وهو يمرغ انفه بانكسار الغُبّار، وفي ذاكرته صورة الاطلاقة التي استقرت خلف جبهته ودماغه في الجدار القريب المقابل لظهره تتكرر باستمرار.

«ان اصعب شيء عندنا يـا اخاه هـو المـوت. مـع أنّ اسهل شيء عند الله (اذا صح هذا التعبير) هو دفـع المـوت، وكلما اقتربنا من الله خفّت روعتنا من شبح المنية لاننا نكون قريباً من فيض الحياة السرمدي...لو كان غيري مكاني لظل عشرة ايام يقفز من الفرحة وهـو يـصيح...لقـد نـجوت...لن اموت الآن، صدقوني لن اموت الآن هذه الثـالثة وقـد مـرّت بسلام...لكنني كنت اتفه من أنْ افكر بشيء مـن هـذا القـبيل وانا بين يدي ربي الذي تحتضنني رحمته بكل حنو وامان».

* * *

الاقتحامات

كان كل هذا الرعب مقدمة لأشياء اخرى، واقرب وصف له اناء من الخضروات يقدمه صاحب المطعم بين يديك قبل ان يصلك الغداء فقد بدأت سلسلة الاقتحامات وهي تطال كل بيت ومدرسة ومسجد وخربه، حيث يدخل مسلحون ساحبون عتلة الامان من اسلحتهم الهشاشة بعدما كادت البيوت تخلو من اهّالها اثر نداءات الطائرات المروحية المتكررة، في حملة تفتيش رهيبة بحثاً عن كل رجل وسلاح.

ولم يكن محمد فندم ورفقاؤه يفكرون بشيء غير الماء فالعطش يحفر لهواتهم وحناجرهم بسكاكين صدئة الفحسول، فذهبوا بقربهم الى مدرسة اليزدي التي تبعد عنهم مسافة عدّة دقائق مشياً على الاقدام بينما تخلّف عنهم أسامه الدرازي وهو طالب من البحرين يدرس الهندسة في جامعة بغداد والشيخ محمد جواد المصلي. حيث ظلا في قبو المدرسة صامتين على حيرة قاتلة وهما يُسرّحان نظريهما

في مسارات خطوط الزخرفة الميتة التي لم تعد غير ثعابين تلتفّ على الجدران في كل اتجاه

ملأ صاحبنا قدراً وقربة له من بئر مدرسة اليزدي. فيما راح اصحابه يغسلون ملابسهم واوانيهم قبل ان يملؤوها بالماء الذي يحتاج شاربه شجاعة كبيرة في تجرّعه واستساغته.

وفكّر قليلاً في صعوبة حملهما معاً فآثر السير بالقدر اولاً ثم يعود الى القربة.

وخرج بالقدر بعد همس ونظرات مغموسة بالتحذير والانتباه، وهي افعال تركها خيرٌ من اقترافها لكننا مجبولون عليها ونحسن اسراءها للناس مع كوننا لا نعرف كيف نطبّقها ولا نرشد الذين ننصحهم بالحذر الى المطلوب فعله...انما حالة خوف نترجمها باساليب العزة والكبرياء ونحن نتهدم في اعماقنا الى حدّ الموت.

ويصل سالماً الى مدرسة (الآخوند) فيسحب نَفَساً عميقاً جداً. وهو يجعل من ساعده وذراعه الايسر مثلثاً مغصوب القاعدة ليمسح حبيبات العرق الطافية على جبينه. ومن منتصف المثلث يبدو وجهان منكران يفتشان بعينيهما في كل اتجاه. وسبابتاهما موضوعتان على زنادين يكادان يلامسان اواخر الاطلاقات الجاهزة للرمي.

جمد في مكانه، ولم يدر ماذا يقول وكيف يتصرف.

عاد اليه وعيه شبه الكامل ثواني قليلة فقط قبل ان يسمع نبرات حادة تلقي عليه اسئلة سريعة وهو يجيبها بقليلٍ من الشعور:

ـ قف...اخرج سلاحك، وإلاّ قتلناك...

ـ انا لا احمل شيئاً غير الماء...صدقوني ليس معي اي سلاح.

ـ هل يوجد احد غيرك هنا؟

وهبط قلبه اسفل اضلاعه وهو يتذكر اسامة ومحمد جواد. فابتلع ريقاً هارباً مفعماً بالمرارة ثم قال:

ـ كلا...لا يوجد احد غيري.

ـ ولماذا لم تخرج لحدّ الآن؟ اما سمعت النداءات؟

كان جوابه عن هذا السؤال بصدق يعني التعجيل باعدامه، لكنه اثر حين اعاد الله اليه وعيه ان يقول شيئاً يدلّ على غربته لعلّ الموقف يتغيّر لصالحه بعض الشيء:

ـ انا غريب، ولحدّ الآن لم اهتد الى طريق بعيد عن الشظايا والرصاص لأسلك الوجهة التي تريدون.

وبدأ أن هذا الكلام قد وجد له موطيء قدم في نفسيهما، لكن القدر قد قال كلمته بضرورة مواصلة الشوط، فانبثق الضيفان اللذان في القبوحين سمعا الاصوات، وما

كاد رأساهما يظهران من باب الدَرَج حتى اشتعلت عيون المسلحين بشرر وحقد لم يَرَ محمد فندم لهما مثيلاً منذ ان تنفس هواء الارض. وهوت حروفهما صاعقة على اذنيه:

ـ هه...لماذا قلت أنك وحدك هنا؟

ـ لانني خشيت أن تؤذوهما.

اننا نلجأ الى الصراحة يا اخاه في اشد المواقف حراجة وادعاها الى الخداع والكذب لاننا نشعر بحقيقة الوجود الذي لا يريد الاّ الناس المتوسمين خطا آدم بعد التوبة، ولان الموت قريب جداً فاننا لا نحس له كل تلك الرهبة والسطوة حين نتصوره بعيداً عنا، وهكذا فان محور سلامتنا الانسانية هو معايشتنا الدائمة لهذا الضيف الذي لابدّ أن يطرق كل باب ليعطي جواز العبور الى العالم الآخر.

ومرت المحاورة بكل وضوح وصراحة حين تابع احد المسلحين كلامه:

ـ نحن نبحث عمّن عنده سلاح.

ـ نحن الثلاثة ليس معنا اي سلاح.

ـ هويّاتكم، بسرعة.

ـ هذه هوياتنا.

ـ هل نخرج من المنطقة؟

ـ إنْ اردتم البقاء فابقوا.

ـ هل تسمحون لي بجلب قربة الماء التي خلفتها في المدرسة الثانية.

ـ لا مانع من ذلك.

مسكين صاحبنا، فهو لا يعرف التركيبة النفسية لاعوان الشيطان المتحكم في اعرق عاصمة للحضارة الانسانية، ان الشرط الاول لقبول هؤلاء في القائمة هو ان يخلعوا اي شيء يمت الى الانسانية والكرامة بصلة، وهذا ما يصرّحون به علانية وبلا استحياء حتى اشتهرت هذه المقولة عنهم لكل جندي يُعلَن عن سوقه الى الخدمة العسكرية «عليك ان تخلع كرامتك وشرفك عند باب النظام قبل ان تدخل».

فما إنْ خرج محمد فندم باتجاه مدرسة اليزدي حتى اعترض سبيله زميل مسلح لهذين العسكريّيْن، فقال ساخراً:

ـ هويتك يا ابه.

فاخرجها من جيبه، وحين تناولها المسلح الجديد وضعها مباشرة في جيب بذلته العسكرية دون ان يلقي عليها ابسط نظرة، ثم قال:

ـ اجلس هنا بدون كلمة او حركة.

وحين خرج زميلاه قال لهما:

ـ هل يوجد احد داخل المدرسة؟

ـ نعم، شخصان.

ـ ها توهما حالاً.

ـ امرك سيدي.

واضاف الى جيبه بطاقتين أخريين قبل أن يأمروهما بالمشي معهم، وما هي الاّ خطوات حتى مرّ شاب شاحب الوجه يتلفّت يميناً وشمالاً فسحبوه وسألوه ثم الحقوه بمحمد فندم وصاحبيه. وتابعوا مشيهم مشغولين بالكلام والالتفات الى كل مكان.

حين يتساوى الخطران. نرجح احدهما على الآخر. وغالباً ما يأتي ترجيحنا خاطئاً تافهاً، لكنه يعطينا شعوراً نسبياً بالراحة لاننا نفّسنا عن شعورنا الممض بالحيرة والاختناق قليلاً...وهذا ما دعا الشاب المسكين الى الهرب في احد الازقة. لكنّ رصاصة سريعة حسمت الموقف بوحشية رهيبة.

«مرّوا بجانبه وكأنّه لا شيء، وانا ومن معي كنا ننظر الى ذلك الشاب وهو يتعفر والدماء تسيل منه حتى مات...وانا لا اكاد اصدّق أنّه كان يمشي معنا قبل لحظات قليلة...اهكذا هو الموت سريع الى هذا الحدّ المريع؟».

وسُلّم صاحبنا ورفيقاه الى سيطرة مؤلّفة من عدة افراد استقروا في شارع زين العابدين، وبعد انتظار قاتل

اركبوهم مع جماعة من الاسرى الآخرين في شاحنة كانت تخبّ الطريق دون ان يدروا الى اين.

كانت تتراكض على مدى الرؤية صور المرقد الذهبي الشامخ وقد اصابت قبته ومنائره وابوابه وضريحه عدة قذائف تركت اثارها في كل مكان وصلت اليه، فيما انهمك كثير من هؤلاء المرعبين بسرقة اعرق متحف في العالم يحتفظ بأنفس الجواهر والمخطوطات والهدايا الذهبية والفضية واللؤلؤية الخاصة بتاريخ مثوى ثاني رجل خلقه الله مطهراً من كل عيب وَدَنَس وظلم...

وتراكضت خلفه شوارع محترقة وبيوت مهدمة واشلاء محنطة بدمائها على امتداد البصر وهي تمدّ اياديها صوب الضريح الخالد كأنها تستغفر من خطايا التاريخ قديمها وحديثها...

* * *

على شفا العبور

القته السيارة مع الاسرى الآخرين عند باب احد المخازن الزراعية القريبة من مطحنة النجف. وحين أدخلوا فيه باعنف الشتائم والسباب وجدوا امامهم نحواً من ستين رجلاً اكبرهم تجاوز العقد السادس من عمره واصغرهم في الثالثة عشرة...

كانت الرياح تعوي بنغمات حزينة وهي تضرب وجوه الجدران والرمال باكفّها الباردة التي بدت قاسية اكثر من المعتاد وكأنها تريد ان تعيش بقية ايامها بكبرياء قبل ان يطرق الربيع ابواب العراق بعشرين يوماً، فيما تفرقت سحب بيضاء من الجهة الشرقية للمخازن بهدوء حزين مخلية الجو لتراكمات الغمام الاسود القادم من الغرب بسرعة مدهشة.

وتعرف محمد فندم على بعض المصريين الذين اودعوا معه في قاعة المخزن، وكان كلّ فرد يبحث خلف عيون صاحبه عن مرفأ يخفف حدّة القلق عنده لكن

دون جدوى...وهكذا تقدمت الساعات بطيئة جداً وهي تقطع وجه ذلك النهار كأنها ثلاجه جليدية تحفر ارضاً لم تتكشف رمالها لعيون الشمس لحظة واحدةً في عمر الزمن الارضي بأجمعه.

ودنا الغروب، فألقى وحشة قاتلة على المكان حتى تمنّى كثير من المعتقلين أنْ لو توقفت عجلة الزمن بهم عند الظهيرة على الرغم من القلق العنيف والانتظار المرّ.

كان صاحبنا يراقب بانقباض بقع الظلام وهي تتكاشف على وجوه الجالسين بعد ان لملمت الشمس كثيراً من اراداتها الموزعة على الارض من فجوات الغيوم المتقطعة، ومع أنّ اغلبهم كانوا صائمين، فاليوم هو الثالث من شهر رمضان، الاّ أنّ احداً لم يفرح بقرب موعد الافطار، بل لم يكن احد يفكّر بهذا على الاطلاق...

«عجيب امرنا يا اخاه حين يأكلنا الخدر والدلال نحسب ان جميع مألولات الدنيا ومشروباتها لا تكفينا ونحن نصارع اخر ساعة من نهار احد ايام الصوم، لكننا نحس بالشبع والارتواء الى اخر حدود التخمه حين يصرعنا القلق والترقب...عجيبة تركيبة الانسان وبناؤه المعقد، الذي نضيف اليه تعقيدان جديدة كل يوم اشباعاً لغرورنا وانانيتنا فاذا هي وبال علينا من حيث لا نشعر».

وعلا وقع اقدام كثيرة، ثم فُتح الباب لتطلّ وجوه مكفهرة مصلوخة اللحى وفي عيونها تعبيرات لم تكن ابداً متصلة بالانسان ولو بخيط ضئيل، وسألوا عن بطاقات هويات المعتقلين الذين لم تؤخذ منهم لحد الآن، وعادوا وسألوا عن النقود والساعات وكل شيء تحمله الجيوب، فغابت بعض الاماني التي ارتسمت على عقول بعض الشباب الصغار حين ظنوا أن المسألة كلها تتلخص في تدقيق الهويات، واحصاء الاسماء.

ودنا اربعة عسكريين فربطوا ايدي الاسرى ربطاً يدلّ على الاستعجال، تلاه امر باركاب الجمع في شاحنة عسكرية تحفّها ثلاث سيارات مختلفة الاحجام.

كانت الشاحنة والسيارات تخبّ الطريق الرابط بين النجف وكربلاء باتجاه مغيب الشمس حتى وصلت الى مسافة تبعد عن النجف باكثر من خمسة وعشرين كيلومتراً. وعن كربلاء بضعف هذا الرقم ثم مالت السيارات قليلاً نحو الجانب الايسر من الشارع لتتوقف في طريق ترابي لا يبعد عن الشارع سوى مسافة قليلة.

كان الى جانب السيارات شق طويل غير عميق حفرته الجرافات منذ وقت قديم والقت ترابه على جانبه الايمن راسمة منه تلالاً صغيرة تعلو جرف هذا الشق المحتفظ

بآثار اسنان الجرافات، ظلّت اوامـرهم تـمنع النـظر الى أي اتجاه غير الاطراق، لكنّ محمد فندم اسـترق النـظر الى مـا حوله عدّة مرات فما زاده ذلك الاّ ذرعاً وضيقاً شديدين وهو يرى ضباطاً واقفين بازدراء بغيض لكل ما على وجه الارض حتى جنودهم الذين ينفّذون اوامرهم بطاعة عمياء.

لكن الاشـد مـن ذلك هـو الاثـار الحـمراء التـي كـانت واضـحة على طول خط التلال القصيرة عـلى حـافة الشـق اليمني، فغض النظر تماماً وهو مفوّض امره الى الله.

امر احـد الجـنود سـتة مـن افـراد الشـاحنة بـالنزول مطرقين. كان صوته غليظاً مشروخاً وهو يـوزع ضـحكات حاقدة مقززة بعد كل جملة يلفظها أمام اسـنان مسـودة او هكذا خيّل لونها لمحمد فندم، الذي اتجه بكل مـا اوتـي مـن سمع وبصر الى حيث يـترجّل هـؤلاء السـتة...وفـزع فـزعاً محموماً وهـو يـرى اسـامه الدرازي ضـيفه الذي كـان فـي المدرسة احد هؤلاء حيث أُجلس والخـمسة الآخـرين عـلى الرُكَب متلاصقين مطرقين، ثم اقترب منهم اربعة من الجنود الى بعد ثمانية امتار وكأنّهم يريدون تصويرهم. بدقة رجال التلفزيون، وسُمعت فرقعة لم تكن بسبب حركة الة تصوير، وما كاد الستة الجالسون يـرفعون عـدسات عـيونهم حـتى انهمر الرصاص من اربع رشاشات خفيفة...

كان المشهد مهولاً حتى آخر حدّ فوق دائرة التصور والتصديق، الدماء تسيل شاخبة على الاديم المالح والقلوب قد تجاوزت الحناجر مسافات بعيدة والاجساد تتساقط من قرب الاطلاق سريعة داخل الشق الشيطاني، وخيّل لمحمد فندم ان الارواح تكاد لا تعرف طريق خروجها من اجسادها بهذه السرعة فزاحت تهرول على طول الشرايين والاوردة. لعلّها تجد مخبأها الذى كانت تظن بقاءه عامراً عدة عقود أخرى، لكن أنّى لها ذلك وقد نضب الدم وفري الدماغ وانمرد القلب بالرصاص.

تساوى عند ذلك الصريخ والسكون حتى لافضل لاحدهما على الاخر ولا يتذكر صاحبنا اي الامرين قد لذّله...

«آهٍ...ارجوك ان لا تسألني كيف كانت مشاعري واحاسيسي او اين اختبأت. فلست ادري عنها شيئاً، ولا اتذكر سوى انني دخلت عالماً من التفكير والادراك يختلف عن السابق فهل هو توقف اجهزة التفكير والادراك عندي؟ ام وصولها الى مراحل متطورة في القرب من حقائق الاشياء».

وقد اختصر القتلة كثيراً من هذا الطريق حين انزلوا الدفعة الثانية من الرجال، وكان سادسهم ضيفه الثاني الشيخ محمد جواد المصلّي وفُعل معهم كما فُعل بالذين من قبلهم.

ولم يكد محمد فندم يجمع بعض خيوط الاحساس الملتهب حتى وجد المسلحين يأمرونه بالترجل مع خمسة آخرين...

ودخل مرحلة جديدة فعلاً من الادراك والوعي.

«انه الموت...حسناً وماذا بعد؟ لقاء الله اليس كذلك؟ ...آه...غفرانك يا رب...استغفرك من كل ذنب واتوب اليك...اشهد ان لا اله الا الله. وان محمداً رسول الله، وان الموت حق والساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور».

ثم خلع نعليه احتراماً لقدسية الدماء الطاهرة التي ستلامسها قدماه فيشعر بحرارتها وظلامتها ورائحتها المنطلقة في وجه الله شاكية مترنحة، وتبدد كل شيء فيه سوى لفظ الشهادة الذي يلهج به بصوت مسموع خاله غطّى كل صوت، وجثم على التُلّيل...

كان ترتيبه الاول الى اليمين...وحدّق امامه بدون اعصاب. كان اربعة اشخاص متفاوتي الطول، يصوّبون بنادقهم الضاربة الى السواد امام ملابس داكنة الخضرة وقبعات مائلة كثيراً الى جهة اليسار فوق وجوه كابية باقصى ما تحمل الكلمة من معنى...

وليس يدري كيف تناهى الى ذاكرته البيت الشهير

الذي حكى افكار كل الاجراء وعبيد التراب «اعطني خوذة جندي عراقي وخذ الف اديب»، وقبل ان يتذكر استنكاره الشديد لهذه الكلمات الابليسية انطلق الرصاص متتابع الصّليات حاصداً الجالسين ابتداءً من الجهة اليسرى. ولم يكن في ذهن صاحبنا الاّ الصبر والتسليم الى قضاء الله وقدره.

* * *

في كفّ القدر

«إنّ الزمن يحمل لغزاً عجيباً حين يتربط بالانسان، والآ فهو على وجه الارض اشبه بالجليد المتراكم في القطبين بارد، منسي، صامت لأنه بعيد عن دفء الانسان. وكلّما فارت الدماء بدفء او احتراق جديد كلّما ازدادت حيوية الزمن حتى لكأنك تتخيل دورة حياة اضخم نجمة في الكون تساوي ثانية واحدة من الحساب الارضي امام فوهة بندقية سوف تطلق الرصاص على جبهتك»...

وهذا ما دار في تفكير محمد فندم قبل ان يحس بشيء جبار يسحبه الى الخلف فيهوي في الشق الذي خلفه. فيما تظل رجلاه متعلقتين بالتراب المتراكم وقد بدا فخذاه وساقاه الاسمران كانهما انابيب تسحب الدم من الاسفل الى الاعلى.

كان كلّ همه متركّزاً حول تصديقه أنّه سقط دون اصابه، وكيف يتبين له ذلك والدماء تختلط بعضاً ببعض ثم انه سمع كثيراً انّ بعض الناس لا يُحسّون بالاصابه من

الوهلة الاولى...

وظلّ النزاع قائماً في عروق التفكير حتى فضته طلقة اصابت مجمع العروق في كعبه الايمن فأحس بألم شديد وسمع صوت فوران دمه وهو يهرب خارجاً من الجسد الى وجه الارض.

لقد غطّى صوت الدم على انين وصراخ المحتضرين المسلّمين ارواحهم توّاً الى اكفّ عزرائيل...فيما تساقطت فوق رأسه وظهره اجساد اسلمها الموت الى مستقرها الاخير حتى احس بالاختناق لكنه بقي دون حراك او صوت حتى النهاية.

كانت الصليات الحاقدة تتجدد مع كلّ دفعة حتى آخر بريء من اولئك السبعين وهو يضغط على انقاض الاعصاب متصوراً ان الدم الذي نزف منه اكثر من الذي بقي في جسمه...

وحين هدأ الاطلاق. تعالت قهقهات وشتائم وتصفيقات مجنونة من قبل اولئك الممسوخين، ثم اقترب لغطهم شيئاً فشيئاً من الجثث وسمع احدهم يقول للاخرين:

ـ سمعت هذا يقول اشهد ان لا اله الا الله...هاه أه أه آه.

وفكر ملياً: هل يقصده هذا المتكلم؟ ...انه لم يسمع احداً تشهّد بصوت مسموع غيره، او هكذا خيّل اليه. يا ترى هل...

وقطعت رصاصة خيوط التفكير حين اصابت فخذه الايمن فخرجت من الجهة الاخرى الموازيه للفخذ الايسر فاخترقته ايضاً وكسرت العظم وخرجت...

«إنّ كثيراً من الذين سمعوا بأمري قد طلبوا ان اصف لهم شدة الالم الذي فجرته الرصاصة لكنني عجزت وعجزت...واقل ما يمكنني قوله هو انها كانت مثل لولب من نار ادخل في رجليّ وبقي ساعات بل اياماً لم يخمد...ان هؤلاء القتلة اطلقوا عليّ النار لا لأنّهم لم يتأكدوا من موتي بل لانني قلت: ربي الله فصدق فيهم قول ربي الكريم: ...﴿اتقتلون رجلاً أنْ يقول ربي الله؟﴾[1]...

الذي افاد صاحبنا هو سقوط الجثث فلم يتحرك حين اطلاق الرصاصة عليه ولو شعروا بحركة منه مهما كانت خفيفة لأفرغوا مخازن بنادقهم في جسده كله، والعجيب صبره على السكون ان كان يستطيع تحريك لسانه وشفتيه وهو ينزف من ستة جروح، كما ان هبوط منطقة الرأس والصدر اسفل الشق وتعلق الرجلين الى الاعلى كان رحمة له لأن الدم كان يتركز في المناطق المتدلية وهي مناطق الحياة.

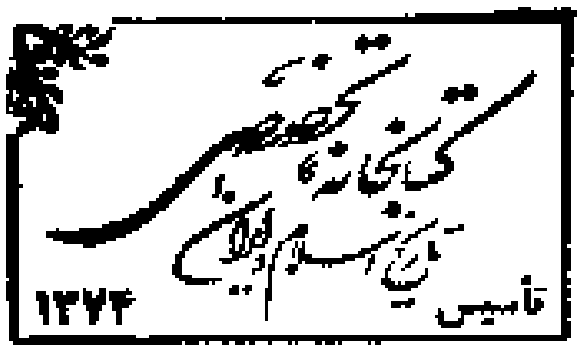

(١) غافر / ٢٧.

بعد دقائق قليلة في حساب الزمن الميّت سمع محمد فندم اصوات السيارات وهي تغادر المكان على آخر شعاع شاحب ترسله الشمس الى كرة الظلم الارضية.

فتح عينيه على سور من الجثث المتراكمة بدون اذنى اتساق...ولم يعرف كيف يفعل...الاّ ان بقايا حروف التشهد العالقة في ادراكه قد دلّته على طريق الدعاء فراح يدعو بانقطاع يحسه للمرة الاولى ولعلّها الاخيرة في حياته...

كان وجهه مقابلاً لامتداد الطريق العام المؤدي الى كربلاء...

آه...كربلاء، وانهالت صور الماضي على ذاكرته فأحس بها حيّة مُعاشة وهو يشم رائحة الدم الفوار واريج الارواح التي تغادر الاجسام قبل الاوان بكثير...

وواصل دعاءه الباكي وهو يُقسم على الله بحق حبيبه وابن حبيبه أنْ يفرّج عنه اذا كان له في العمر بقية...

«نحن هكذا يا اخاه لا نشعر بأنفاس الله إلاّ حين يحاصرنا اختناق الموت. فنلهج بكل دعاء سمعناه او نبدعه بين ايدي شدائدنا غير مستحين من تلك العين التي طالما رأتنا في اقذر وارذل اماكن الجحود والجريمة، ثم نحدّق بعالمها كأننا سرنا على هداها كل سنين، العمر طالبين بكل ثقة ان تحملنا الى نعمها من جديد لنواصل طريق الجحود...

انّ القلب الذي لا يعرف الحب الاّ حين تأكله الديدان حري به أن يوصد بابه بوجه النبض الطاهر قبل أن يطمح بالمزيد من الانحدار في مستنقع الحضيض».

* * *

الانتشال

احس محمد فندم ان الرباط الذي طوّق معصميه الى الخلف كان ممكناً فتحه. لأنّ العسكري الذي ربط ايديهم بالحبال القصيرة كان مستعجلاً في انجاز مهمته ضمن الوقت القصير المحدّد له فعالج فتحه فترةً حتى نجح، لكنّه لم يستطع ازاحة انقاض جدار الجثث الثقيلة التي استولت على مسامات الهواء، وما ان تذكر الهواء حتى شعر باختناق شديد زاد من حركته لعله يستطيع التخلص...وباءت بالفشل كل محاولة...

من فتحة ضممها باحكام تقاطع جثتين استطاع ان يرى اشخاصاً يتحركون...وتسمّر في مكانه حين ظنّ ان الجنود قد عادوا. أو أنّ بعضهم قد تخلّف للقضاء على أيّ جريح يُحتمل أنّه لم يَمُتْ امام زعيق البنادق...وطال سكونه حتى سمع تأوّهاً عميقاً يعانقه صوت مليء بالحنان وهو يحثّ على التحمّل...

وركّز نظره من خلال حلقة الفتحة فاذا باشخاص

ملطخين بالدماء نهضوا جرحى من بين الجثث...فنادى باعلى صوته ففزعوا. ثم طمأنهم بأنّه مثلهم لكنه لا يستطيع الخلاص. وتعانقت الجراح يساعد بعضها بعضاً، ويمسح دمُ بعضها دماء بعضٍ آخر. والانفاس ملتهبة بخوف وحزن ووجع شديد وانزاح جدار الجثث عن خياشيمه التي راحت تتلقف الهواء بنهم كبير وهو يتخلص من رائحة الدم النفاذة، كان عدد الجرحى المحدقين به خمسة، قد اصيبوا اصابات مختلفة لكن احداً منهم لم يكن يشكو كسراً في رجله، ولم يعبأوا بصراخه الحاد حتى امالوا عنه الجثث واخرجوه من داخل الشق الى وجه الصحراء، ثم نهضوا به ليوقفوه، لكنه جُنّ جنونه من الصراخ فتبيّن لهم كسر رجله اليسرى...ولفّ الدوار رأس صاحبنا وهو يسمع صوت نزف دمه يتدفّق بسرعة وكمية اكبر وكأنّه دوي نحل. فأغمي عليه...

«جبانٌ هو الجسد الانساني، فهو حينما يكون تحت سطوة قرار الروح نجده مطيعاً خادماً يتحمّل اثقال الاساطير بخفة واداء عجيبين، لكنه حين يكون سيد القرار يخور ويتراجع وينغمس بالذل وحتى بالموت لأنه يريد ان ينعم ببرودة الاسترخاء والخدر»...

وحين افاق وجد اصحابه الخمسة يتهيؤون لحمله معهم على ما بهم من اصابات، فرفض بشدّة أنْ يكلفهم عناءً

جديداً وهو لا يرى نفسه الاّ ميتاً عما قريب...وانهمرت دموعهم وهم يستجيبون لطلبه بعد أن اقسم عليهم ان يتركوه ويذهبوا...

كان وجهه هذه المرة ايضاً باتجاه كربلاء، واستعادت مخيلته الصور التي نحتها الخطباء في عقله وقلبه...كان المشهد الذي يراه الآن مشابهاً جلوس الحسين عند رأس اخيه المقطوع الكفين وهو يهمّ بحمله الى الخيام لكنه يرفض متوسلاً بأخيه ان يبقيه في مكانه حتى يسلّم الروح الى واهبها، لانه لم يحقق امنية طفل يموت من العطش...وكم تمنّى محمد فندم أن يضع انسان خدّه على خدّه حتى يفارق الدنيا كما كان حال الاخوين ابي عبدالله وابي الفضل...

وغابت الاشباح الخمسة مترنّحةً عن دائرة نظره يشدّ بعضها بعضاً الى جهة موغلٍ في ارجائها الظلام، ولم يكن يتوقع أن يكون لهم قبر جماعي واحد بعد فترة ليست طويلة.

غزت الوحشة كلّ شجاعته وتحمّله وهو يرى الليل يرداد هبوطاً على حسرات الرمال، وعبثاً راحت محاولاته في السيطرة على عواء الوحدة، وكم حاول التمادي في جبن جسده فراح يغمض عينيه ويفغر فاه ويستذكر الاحداث القريبة على طنين الا لم الحاد في رجليه، لعله يموت فيستريح...لكن ذهبت هذه المحاولات ادراج رياح الخيبة،

فيما تصاعد العواء المخيف من كل الارجاء...

عندها زحف الى الجثث رغماً على انف كل الآلام النفسية والجسدية واستطاع بعد جهد جهيد ان يعثر على جسدَيْ ضيفيه وصديقيه العزيزين اسامة، ومحمد جواد، وطال هطول الدموع، وعلا النشيج والعويل، وكثرت هتافاته باسميهما وهما ساكتان جامدان، وهُرعت الى ذاكرته صور كربلاء متتابعة بسرعة مشوّشة حتى استولت صورة الحسين على طول شاشة الذهن وعرضها وهو يقوم من جثه ويقعد عند أُخرى باكياً مؤبناً مهنئاً بالنعيم الذي وطأته ارجلهم توّاً...

كانت عيناه تلتقطان صورة وضعه الآن وهو يضع رأسَيْ صديقيه قرب صدره فترسلانها الى ادراكه، في الوقت الذي تقوم به مخيلته بارسال تلك الصورة العريقة الخالدة الى الادراك أيضاً فتمتزجان بعناق حار وكأنهما وُلدتا في لحظة واحدة...

واستمرّ البكاء صامداً امام كلّ زجر ضعيف يطلقه العقل في تلك الساعة العصيبة حتى مرّت الآية الكريمة مجلجلة في روحه

﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتا، بل

احياء عند ربهم يرزقون﴾[1]...

وطبقت طمأنينة عجيبة على كلّ مكان، فتذكّر الصلاة...

ادار وجهه الى جهة الغروب وضرب التراب براحتيه مرتين وهو يُمرّها تارةً على جبهته، واخرى على ظاهر كفّيه المعروقتين، ثم صلى بقلب دائم الحضور على طول المناجاة التي وحّدت بينه وبين لمسة السماء، وكأنّها تُخلق الآن لا أنها كانت تمرّ عليه في كلّ يوم خمس مرات...

* * *

(١) آل عمران / ١٦٨.

عودة البنادق

إنشدّت عيناه بقطعة سوداء يقارب طولها ثلاثة ارباع المتر جزم اول الامر أنّها افعى صحراوية سوف تكمل المشوار الذي هرب من بين أيدي فرقة الاعدام باعجوبة، ولم يستطع ان يحوّل وجهة نظره الى مكان آخر...وطال التحديق وقتاً غير قصير في سكون رهيب دون ان يتحرك هذا العدو الاسود الذي لا يبعد عنه سوى خمسة امتار فقرر اخيراً ان يُهيّج الجنيّ بعد ان يقول بسم الله الرحمن الرحيم.

مدّ يده والتقط حصاة ملساء ليضرب بها الافعى الساكنة...

«لماذا نحن هكذا يا اخاه...في اوجع اوقات الوحشة، نتصرّف مثل اتعس مجنون من اجل رؤية انسان؟ الاننا خلقنا من اجل أنْ نعيش معاً؟ واذا صحّ هذا فلماذا ينتابنا شعور جارف في اهنأ لحظات الطمأنينة والتآلف مع الناس يدفعنا للنيل من وجود الآخرين والاعتداء على افراحهم وضحكات قلوبهم الغضرة بحب تتفتح وروده باستمرار؟».

واستقرت الحصا في وسط الشبح الاسود، لكنه لم يتحرك ابداً، فلذّت لصاحبنا الجريح هذه اللعبة فراح يقذف اقفاه بالحصيان لعلّه يأنس بحسيس ارتطامها الناعس، أو لعلّ أيّ كائن حيّ يتحرك بالقرب منه حتى وان كان أفعى!...

لكنها لم تتحرك...

فانبعث جنون جديد يدفعه للزحف حتى يصل الى سر جمودها اللا مقبول، وبعد جهاد مرّ وصل الى طرف شبحه الاسود، وبعد تردّد لمسه بقلق فإذا هو املس في بعض اطرافه...

وتفاجأ وهو يكتشفه سلكاً كهربائياً غليظاً تغطي بعض اجزائه الدماء، ولم يكن الموقف يحتاج كثير تفكير عن سبب وجوده في هذا المكان، فوحوش الاعدام والاعتقال يلذّلهم حمل الاسلاك الكهربائية لضرب الضحايا، كما شاهد ذلك طوال النهار حين كان في سجن المخازن الزراعية.

وحمد الله كثيراً على هذه النعمة وهو يربط رجله المكسورة به حتى يستطيع الزحف بآلام اقلّ ايجاعاً وإحراقاً. وفعلاً بدأ يزحف الى الوراء. حيث مدّ رجله اليسرى على وجه الارض وراح يرفع جسده بكلتا يديه وبمساعدة رجله اليمنى المصابة ايضاً ليدفعه الى الخلف فيتقدم عدّه سنتمترات...

وليس يدري ما الذي جعله يقرر الزحف السلحفاتي حتّى تُلَيل قريب بدا ناعماً جداً امام عينيه وكأنّه فراش وثير...

ووصل بعد تعب وجهد والم لم يستطع ابداً وصف ايّ منها فتمدّد على دفء الرمال ملقياً رأسه على التراب الصاعد باتجاه قمة التليل وهو في الواقع كومة رمل لا يتجاوز طولها المتر الواحد...

كان ابعد شيء عن دائرة الامكان هو أنْ ينام...ولهذا ظل يراقب النجوم وهو يشعر بالآلام تنهش اعصاب حسّه بشراسة رهيبة.

وفجأة سمع صوت سيارة تتقدم باتجاه المكان...

كانت خطوط الضياء المصبوغة بالغبار الليلي الناعم تتوزع على تجاعيد الصحراء حتى تتلاشى في كثافة الظلام. وترجّل شبحان امام مشق الجثث، وما ان وقعت عيناهما على المشهد حتى اطلقا اصواتاً بدت غريبة على سمع محمد فندم، فرفع رأسه وهو يشعر بلذة أمل حلو جعله يظن ان السيارة مدنية وقد ساقها القدر لانقاذه...

وهربت صور الحلم على تصفيق وغناء وقهقهات وبصاق كثيف كان ينطلق من مسلحَين بملابس الحرس الجمهوري، وتسمّر صاحبنا في مكانه وهو يُجمّد نظرات

مذهولة على هذين الوحشين...

كـان رأسـه مـائلاً عـن قمة الكثيب الرمـلي بـزاويـة مقدارها ٣٠ درجة، هذا يعني أنّ ابسط التفاتة مـن احـدهما تجعله فـي دائـرة الرؤيـة امـام مـصابيح السـيارة العـنيفة الضوء، وفعلاً فقد حانت التفاته مـن المسـلح الواقـف قُـرب السيارة، فجلجل ضاحكاً وهو يعالج سـحب اقسام البـندقية الآلية بخفّة وبدون اكتراث، ثم ادار عـتلة الامـان فـاصبحت البندقية جاهزة للاطلاق بدحكة خفيفة على الزناد الذي غطاه رأس سبابته العريض...

تقدم باتجاه محمد فندم وتبعه صاحبه ضاحكاً وهـو يتابع خط سير صاحبنا من الشق بدلالة الدماء الجامدة التي نزفها طول فترة الزحف، وكانت كثيرة قانية اللـون، بـدت متوهجة على اطراف الاشعة الكاسحة المنطلقة من مصابيح السيارة، فتابع ضحكه بـقهقهات كـبرى وهـو يـتوقف عـن المسير فيما سدّد صاحبه فوّهة البـندقية الى جـبين مـحمد فندم.

«ومرة أخرى يضطرب نظام الزمن، حين يجد الانسان أنّ كلّ حصته من هواء الدنيا نصف حفنة من الانفاس سوف يُحرقها على القلق والذهـول والاسـف، اننا يـا اخـاه نـقدّم انفسنا ضحايا تعقيدات وتصوّرات نبتكرها ثم نـعلّقها عـى

عنق الزمن، ونؤدي طقوس الطاعة بين يديها الجامدتين بشكل وثني لكنه اكثر تطوراً عن هيكلية اللات وهُبل، ونحن نظن أنّنا في ارقى قمم الايمان والتوحيد، وبعد هذا الا يمكننا الاتعاظ من طول الزمن وقصره حسب انفعالاتنا النفسية، الا يمكننا مثلاً ان نطيل لحظات هنائنا وسعادتنا اوان نختصر دهور مآسينا واحزاننا بحذف واضافة بعضٍ من تلك الطقوس...اهٍ مهما يذهب بنا التفكير بعيدا فاننا نظل كما قال صاحب انفس متحف منهوب في العالم: الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا».

ومرّت امام ذاكرة صاحبنا صور سريعة لرجل قتل بعد معركة كربلاء وهو يقاتل بسكين صغيرة كانت معه إثْرَ افاقته من اصاباته العميقة على صوت مخيف «قتل الحسين...قتل الحسين»، لكن العسكري السائل امام عينيه باقصى الوان البشاعة والجبن يتخير منتصف جبينه الاسمر المعروق، وتذكر اسامه الدرازي الذي رآه قبل دقائق قليلة برأس دون جبين...

وانطلق صوت...

لم يكن صوت الرصاص، انما صوت ذلك العسكري الضاحك بكل ما يستطيع من قوة وهو يقول: «ارجع، فانه لن يعيش، انظر الى دمه الذي يصبغ الارض، اتركه في مكانه

يتعذب فسوف يموت، ولنتخيل في سهرتنا الليلية كيف تخرج روحه دون رجعة».

قهقه الوحش الماثل امام الكثيب المخطط بعناية فائقة، ثم ادار عتلة البندقية وهو يلفظ حروفه الاخيرة المحشورة في طيّاتٍ صَدِئةٍ من السخرية والاستهزاء: «في امان الله».

* * *

أنيس في منتصف الليل

كان السكون رهيباً جدّاً بعد ان غاب آخر صوت ضعيف للسيارة مع هدأة الليل ...ولمّا جفّت آخر كلمات الحمد والشكر على شفتَيْ محمد فندم احسّ بعمق البحر الذي يطوّقه، وتذكّر انه صائم، ولم يفطر لحدّ الان إلاّ على الرصاص والخوف والدم، وهذا هو ثالث ايام صومه، وراح يراقب في غرب السماء هلال شهر رمضان الوليد الذي يستعد الآن للسفر الى صفحة وجه الارض الاخرى، وتذكر الحروف الخالدة التي حفظها التاريخ الارضي والسمائي عن ارقى مخلوق صنعته يد الله «قد اقبل عليكم شهر الله بالبركة والمغفرة والرحمة...وقد دعيتم فيه الى ضيافة الله».

واهتزّ قلبه المتعب خشوعاً وهو يُحسّ بأنه ضيف نزل في ساحة الله فحلا الدعاء ولذّت المناجاة. وتقدّمت ساعات الليل ومحمد فندم يكلّم ربه كأنه يراه، حتى انتصف وقد تعب صاحبنا من البكاء والاستغفار والنوح والشكوى...وظنّ انّه سيقضي الليلة على هذه الحال فقد جلّله الله باطمئنان

وأمَنة، لكن كرم الله ورحمته ارادا له المزيد...

بدّدت سكون الليل البارد قليلاً نبرات انين خافتة ظلّت تتعالى شيئاً فشيئاً حتى صدّق صاحبنا اذنيه. فرفع رأسه ليرى جُثةً تحبو على اليدين...

فزع من هول المنظر، لكنّ الجثة المتخلّصة من ركام الجثث المكدّسة في الشق واصلت تخبطها في كلّ اتجاه، حتى سلكت في سير متعرّج وجهة الكثيب...فصاح مرعوباً...

ـ من أنت؟ ...

ـ ها...انسان...هنا انسان؟...انسان؟...

ـ ذ...نعم...انا انسان.

ـ تريد اطلاق المزيد من الرصاص...ها...قل لي...قل لي...اضرب كما تحب...اضرب...اضرب...

ـ لا...لا...انا...انا لست منهم...انا مثلك صدقني...

ـ حقاً...آه...يا ويلي...ولداي...ولداي...

ـ هل انت جريح...

ـ انا لا ارى...الدماء تجمدت على اجفاني...

ـ ها...حقاً...أذن تقدّم...واصل المسير باتجاه اليمين قليلاً.

ـ ارجوك...اينك انت...اقترب مني...

ـ لا استطيع، انا مصاب في رجلي...تقدم باتجاه

اليمين...

ـ آهٍ، لا تعذبني، اكاد افقد عقلي...اين هي اليمين...

حسناً اتبع اماكن الحصى التي سوف اقذفها قريباً منك...

بعد برهة كانت جثتان تتمددان على كثيب الرمل متعلقتان بخيوط روحين لم يؤذن لهما باللحاق الى المستقر الاخير...

تعالى الانين تدريجياً حتى صار عويلاً مرعباً في اول ساعة من نصف الليل الثاني، ولم يملك محمد فندم نفسه حتّى انفجر ببكاء غريب، كأنّما اعطاه وجود هذا الانسان قربه لوناً آخر من الدموع وبعد فصل طويل تخلّصتْ حروفٌ مذهولة من حنجرة يابسة مشروخة:

ـ ما الذي يبكيك يا عم...وقد كتب الله لك حياةً جديدة.

واحسّ بسذاجة سؤاله على الرغم من اقتناعه به قبل أن يطلقه بسبب حَدْس مجهول، فخفّ بكاء الرجل قليلاً ثمّ علا، ثمّ خفّ وقال باختناق وعذاب:

ـ انا لا ابكي لما اصابني، بل احمد ربي على هذا العمر الجديد العجيب، لكن...آه...آآه...اولادي، ابكي على قتل اولادي.

وظنّ صاحبنا ان الرجل قَلِقٌ على اولاده الى حدّ مبالغ

فيه فتكلّم يريد تهدئةً روعه:

ـ لا عـليك، لعـلّك تـرجع الى النـجف فـترى اولادك مختبئين في البيت او في مكان امين...

وانفجر العويل شديداً من قلب مفجوع:

ـ لا يا بُني، انهما قُتِلا امام عيني وليتني قُتلت معهم.

ـ حقاً؟ ...واين قُتِلوا؟

ـ فـي الشـق الذي امـامك وهـم الآن مـع هـذه الجـثث الممزّقة.

فعلا بكاؤهما حتى خمد الرجل، بينما ظلّ محمد فـندم مستيقظاً الى طلوع الفجر من شدّة الالم والبرد الصحراوي. فايقظه بهدوء ومع ذلك فقد هبّ فزعاً مرعوباً، لكنّ كلمات صاحبنا كانت سريعة في تطمينه:

ـ اسم الله عليك يا عم، انا صاحبك لا تخف، لقد طلع الفـجر فـاذهب الآن مـن هـذا المكـان الرهـيب لئـلا تُـرى ثانية...اجلس امسح بقايا الدم عن جفنيك.

ـ اجل يا بُني، سنذهب معاً في عرض الصحراء.

ـ هل نسيت انني مصاب برجليّ.

ـ لا عليك سأحملك يا بُني، فـانا لا يـمكنني أنْ اتـركك وحدك في هذا المكان.

ـ كلا يا عم يكفيك جُرْحك وعذابك، اذهب وانج بنفسك.

ولي الله.

ـ فوقف باكياً كأنّه مسمّر في مكانه لكنّ صاحبنا الحّ واقسم عليه بالذهاب فتركه وهو يضع يده على جرح في كتفه والدموع تسيل على وجنتيه.

وحين انتشر الضوء الابيض اختفى الرجل وراء الكثبان الرملية ليجد القدر المحتوم بانتظاره.

* * *

أوّل يوم في الصحراء

تطلّع حوله فوجد نفسه قريباً جداً من الشارع العام واستطاعت عيونه أن تلتقط البريق الذهبي الاصفر الذي ترسله قبّة الامام علي على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً باتجاه الجنوب فقرر ان يجعل زحفه صوب النجف، وبدأ بالزحف البطيء بدون اغماء اودوار مع اول خيوط الشمس حتى انتصاف النهار مع فترات استراحة كثيرة. كان يزحف الى الخلف مداراةً لرجله المكسورة المربوطة بالسلك من احد طرفيه بينما شدّ الطرف الثاني بثقب في ثوبه كان يستقرّ عليه زراره الابيض وكم آلمت اليتيه حجارة محدّدة او نبتة شوكية من نبات الصحراء، وفَقَد جسمه كميات اخرى من دمائه. فانهدت قواه.

نظر الى ساعة في يده لم يصادرها الارهابيون في سجن المخازن الزراعية لأنّ استعجالهم في جمع اغراض المعتقلين جعلهم لا يدققون كثيراً في الايدي والجيوب للتأكّد من خلوّها تماماً من أيّ شيء، وهكذا ظلت الساعة في

معصمه وخاتمان في اصبعين من كفّيه، كانت عقاربها تشير الى انتصاف النهار فتيمم وصلى صلاتي الظهر والعصر ثم واصل زحفه المتقطع والألم يعبث باعصابه كيف يشاء، فيما انهكه الجوع والعطش وهو لا يجد في عيون الرمال غير السراب والعطش. وبعد معاناة لا ترضخ للوصف انقطع آخر خيط من خيوط الاصرار في نفسه التائقة الى مزيد من الزحف، فانكبّ على التراب واضعاً جبهته على ظهر كفه الايسر وهو في اشدّ حالات الاعياء، واغمش عينيه طويلاً وحين فتحهما رأى عقرب الساعة تشير الى السادسة، فاعاد اجفانه على مسرح الاحداق وهو يشعر نحو طلائع الليل بشعورين متعاكسين احدهما يرحب بستارته السوداء التي تخفيه عن العيون، والثاني يبعث الخوف من وحشته القاسية.

وفتح عينيه بكلّ ما يستطيع وهو يسمع اطلاق رصاص قريب.

لم يكن لديه ادنى شكّ بانه هو الهدف وظلّ في مكانه جامداً وهو ينتظر ان تفيض روحه المتعلقة بجسده تعلّقاً يسيراً...لكنّه لم يحسّ بأنه اصيب، وحين رفع رأسه وجد قتلة الامس يُنزلون في الحفرة اعداداً جديدة فيطلقون عليها النار على دفعات...

لم تكن المسافة التي قطعها زحفاً طويلة لكنها كانت كافية للاختباء عنهم ولو تتبعوا خطوط الدم على وجه الصحراء لوصلوا اليه بسرعة، لكنهم حين رأوها استفادوا منها حقداً آخر. فراحوا يدفنون الجثث بجرّافة جلبوها معهم لئلاّ ينجو جريح.

وبكى صاحبنا بدموع حرّى وصوت خافت وهو يستعيد مع هذا المشهد المريع ذكريات امس لحظةً لحظة، حتى انه حدّق ملياً بالجالس على اليمين من الدفعة الثالثة، ومع انه لم يميّز ملامحه جيّداً إلاّ أنه شعر به وكأنّه هو لكنّه لم يمهل هذه المرة ليزحف بل مدّ يد روحه الى أقرب مَلَك ليرحل معه الى اعماق السماء.

واستفاق شعور جارف بالشكر في قلبه، فتيمم وصلى وهو يعيش كلّ مفردة من مفردات الصلاة فاذا هو يؤديها بحضور قلبيّ جديد مع انه لا يستطيع الصلاة إلاّ إيماءً بنصف جلوس.

القى رأسه وما تحمله من أفكار وخيالات على الارض التي بدأت تمتص البرودة قليلاً قليلاً وغامت عيناه فما بين اليقضة والنوم.

وقف رجل طويل القامة بجانب رجله المكسورة وعليه رداء طويل قويّ اللون تحرّكه الرياح في كلّ اتجاه، كان بلون

الأرض المبتسمة للربيع فضربت الريح بأذياله على رجليه حتى احسّ بخدر يستولي على الالم وكأنّه غير مصاب. وركّز صاحبنا نظراته على منطقة وجهه فلم يفلح في معرفة ملامحه، وهمّ بالكلام لكنّه لم ينطق شيئاً. كان يظنّ انه احد رعاة الصحراء وقد حسبه ميّتاً لأنه لم يتحرك ولم يَفُهْ بحرف واحد، فخاف أنْ يذهب عنه وهو يريد أن يصيح بأعلى صوته: لا تذهب...انا مصاب، وتكّثفت دوائر الالوان والاصداء حتّى استفاق محدّقاً بسماءٍ متخلّصةٍ توّاً من الغيوم مع انسام عافت كثيراً من برودتها.

كانت هذه أول اغفاءة عميقة له بعد الحادثة المروّعة، فاحسّ براحة جميلة تلتفّ حول جراحه واعصابه. وكم تمنّى ان يستمرّ حلمه الحبيب فهو بحاجة الى دفء انسان. وتمتم بدعاء شاكر ثمّ مكّن جبهته من الأرض ليغفو على سجود طويل.

بعد ساعة ونصف واصل زحفه النمليّ البطيء حتى طلع عليه الفجر.

* * *

ايام اخرى في الأتون

كان اليوم الثاني نسخة مكررة من اليوم الذي سبقه دون أيّة تعديلات، فبعد صلاة الفجر بدأ الزحف والنزف، مع الم حاد ينشر كلّ حُبيبات الاحساس، الى ان صارت الشمس في قلب السماء حيث موعده مع ضرب التراب واداء الصلاة الايمائية بعد خمسة وعشرين استراحة، ليعقب ذلك زحف متقطع جديد حتى افلت الشمس على وجبات جديدة من الضحايا الذين يلفظون آخر انفاسهم تحت تراب الجرّافة.

وابتسم محمد فندم قبل اعدام الوجبات الجديدة بنصف ساعة وهو يرى عدّة نملات مسرعات الى حُفَرِها كان خط سيرها بموازاة خط سيره، لكنها سبقته جميعاً فقد كان في عين كل واحدة منها جبلاً من لحم يُخادع نفسه في الحراك...

لكنّه احسّ بعد اعدام الضحايا بحزن جديد الايذاء يستولي عليه بثقل مرير، وحين نزلت دموع من عينيه اكتشف أنّ ارخص واتفه شيء في الدنيا هو الدمع، بل انّ

الذي يزيد الدموع خسةً وانحطاطاً هو نزولها المفيد للعين، فكم هي كاذبة ملايين العيون حين تُغيّر مواقف الناس بقطرات مالحة مليئة بالاقذاء المغسولة.

وحين جنّ الليل انخرط صاحبنا بالدعاء والصلاة، واحس باعياء شديد لكنّ خوفه وهلعه من مشاهد القتل جعلاه يزحف حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

جمدت غرائصه من التعب والوحشة والنعاس فأغمض عينيه بهدوء وقبل أنْ يشرب كأس النوم حدّ الثُمالة سمع نباح كلاب قريب..كان نباحاً وحشياً يقترب منه بسرعة مجنونة، وحين فتح عينيه جيداً وجد كلبين واقفين بجانبه، واستطاع رؤية بريق انيابها التي تكاد تلامس جسمه، بل وحتّى تموّجات قطرات اللعاب على بياضها المخيف، وهما تارة يهرّان واخرى ينبحان فيحيلان الجو عالماً من الوحشة والرعب والموت، وتلفّت في كلّ اتجاه لعلّه يجد شيئاً يتسلح به، فلم يجد غير الرمال، فقبض منها قبضات متتالية وراح يرميها في وجهي الكلبين فيتراجعان قليلاً ثمّ يتقدمان الى حدود ادنى وادنى، واستمرت اللعبة بضع دقائق حتى انهكه التعب فاستسلم، واضعاً رأسه على التراب الرملي وهذأ فيه كلّ شيء.

«فاذا بالكلاب تدور حولي بسرعة وكأنها نسور

محلّقة فوق فريستها، فرفعت رأسي، واخذت احفر بيدي في التراب، فاستخرجت حصاةً صغيرة ورميتها على احدهما فاصبته في رأسه ففرّ هارباً إلاّ أن رجلي المكسورة تأثرت بسبب رمية الحصا بقوّة، حينها صرختُ بأعلى صوتي فهرب الكلب الثاني أيضاً، وبعد ذلك بقليل استمررت بالزحف والدماء تسيل من رجليّ، والجوع يكاد يُقطّع امعائي والعطش قد اخذ مأخذه من روحي، والبرد يشل جسدي. على أنّ لي موقفاً آخر مع الكلاب، واجهته في الليلة الأولى عندما كنت مختبئاً وراء الكثيب الرملي قرب الشهداء حين سمعت اصوات كلاب غريبة فرفعت رأسي واذا بعدد منها وهي تهرّ بصوت خافت حزين كأنها متأثّرة شديدة الحزن على مصارع هؤلاء، وبعد ذلك ذهب احدها بعيداً عن الحفرة فتبعه آخر وآخر الى أن ابتعدت عن الحفرة، وانا انظر لذلك المشهد الغريب ولا اكاد اصدق ما ارى، فهي جائعة لا شكّ في ذلك، ومع كلّ ما فيها من حاجة للنهش فانها هرّت باكية ثمّ ودّعت الجنائز بهدوء وسكينة وتأودة. وتذكرت الجنديين الساخرَيْن من الشهداء، الراقصَيْن على اشلائهم فزاد استغرابي...كم هو فارق شاسع ابعد من السماء والارض بين هذه الكلاب الحيوانية وبين تلك الكلاب البشريّة».

وتــوقف الزحـف الثقيل عـند الفـجر لتأديـة الصـلاة واستراح محمد فندم قليلاً، لكن الخوف من وحوش الاعدام لم يترك له تحسساً للراحة، فآثر مواصـلة الزحـف، وهكـذا كابد يوماً جديداً غير مختلف عـن يـوميه السـابقين إلاّ فـي موقف طارىء جعله مرّة أخرى بين اسنان القدر. فقد هرب أحد الابرياء لحظة انزاله من الشاحنة لتنفيذ حكم الاعدام فيه مطلقاً ساقيه للريح باتجاه مضجع صاحبنا فتبعه ثلاثة من المسلحين، وهم يركضون بأقصى سُرَعِهِم ويطلقون النـار عليه، فايقن صـاحبنا بـالهلاك ولم يـبقَ امامَه غـير اطـباق اجفانه ليظنه من يراه أنّه ميت وعـلى الشـفاه والقلب دعـاء هامس لله يسأله دفع هذه البلوى بـحقّ حـبيبه وأهـل بـيته، وكرّر الآية القرآنية ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدّاً فاغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[1] وتذكر أنـه قـرأ فـي احـد الكتب ان حبيب الله ﷺ قالها ليـلة هـجرته فـاعمى الله عـيون اعـدائـه حـين بـات ابـن عـمه عليه السلام وتـلميذه الاول عـلى فراشه...ومرّة أخرى تختلط خيوط الماضي بالحاضر وهو يرى من خلال رموشه التي لا تطاوعه على الانطباق لمعانَ القبة الذهبية العلوية.

---

(١) يس / ٩.

وتكررت المعجزة حيث مرّوا قريبين منه ولم يروه، ثم عادوا ولم يروه واصواتهم تملأ المكان بالوحشة اشدّ من هرير كلاب البارحة، ثمّ ركبوا احدى سياراتهم فاوصلتهم قريباً من الشاب الهارب ليطلقوا عليه النار قبل ان يعودوا ضاحكين.

واجهزوا على المعتقلين الآخرين بعد أنْ اسلم الشاب الهارب روحه الى ربه وهي تودّع الجسد المعروق من أوّل اطلاقه قاتلة.

وبعد انتظار طويل يجيء الليل محمّلاً بخوف أكبر ووحشة اعمق وبرد اشدّ، لكن صاحبنا واصل زحفه البائس بعد اداء الصلاة. طوال الليل.

وحين اصبح الصباح عاود الزحف بعد فريضة الفجر ليعيش يوماً آخر مشابهاً للأيام الثلاثة السابقة وهو في حالة سيئة جدّاً.

* * *

اليوم الخامس

كانت المسافة التي قطعها زحفاً خلال اربعة ايام تناهز كيلومتراً واحداً بعدة امتار اي انه بعيد عن المجزرة المتكررة كلّ يوم بدقائق ضئيلة قليلة جداً يختصرها عسكريٌّ راكض، هذا يعني أنّه لم يفعل شيئاً يختلف عن غرس نعامة خائفة رأسَها في الرمال. ثمّ ان جسمه المكدود البائد الشحيح الدماء قد اعلن تمرده على اي قرار بالزحف، فاستلقى محمد فندم فجر اليوم الخامس بعد الصلاة واغمض عينيه وهو يُلقي الحبل على الغارب تماماً.

وارتفعت الشمس...وعلا النهار مع تغيّر مفاجيء في الحرارة وحركة الرياح، ولم يكن احد يصدّق أنّ ذلك اليوم من ايام شهر آذار فاشتعل كلّ شيء من حوله، الرمال، الهواء، الجرح، العطش، الجوع، الدم، الحزن، الألم، اليأس، إلاّ من الله.

واخذ يمصّ النباتات البريّة بشراهة ونهم لعلّه يحصل على ذكريات ماء وغذاء في طيات مرورتها المعذّبة.

ومع كلّ هذا العذاب الذي حمله اليه اليوم الخامس فانه ظلّ مصرّاً بينه وبين نفسه على أنّه بعين الله، وهذا يهوّن كل ما ينزل به كما كان الحسين. وحين تذكّر الحسين احسّ بان عروقه جميعاً تسافر على امتداد الرمال الى كربلاء الرابضة بفراتها ونخلها على مسافة خمسين كيلومتراً باتجاه الشمال، فيشعر بها تلتصق بعروق ابدية ما يزال يتفجر منها دم عبيط يسري في شرايين الزمن ليمنح الحياة والحب والكرامة. فازداد يقينه أنّ ما جاء به هذا اليوم هو مصلحة خفيّة لا يعرفها الاّ الله فاستسلم الى كلّ ما يجري بركون كامل وجَعلَ تصرفاته كلّها طبيعيّة تماماً حتى لا يخلّ بواحد من خيوط القدر المجهول. لكنّ العطش غلب كلّ ادراكه فأغمي عليه، وحين استفاق على لسع اشعة الشمس وصريخ الريح المجنونة الهبوب تشهد شهادات الايمان وهو يمهّد الطريق امام عروج روحه الى مستقرها الاخير. غير ان الموت لم يجيء حتى لحظةِ فتحِ عينيه، وحين رأى الدنيا تخترق بؤبؤه الصغير تشبّث بها وهو يحفر الرمل بيديه المتعبتين لعلّه يصل الى الماء. فاستحى من فعلة الحفر فاغمض عينيه لكنّ يديه استمرتا بالحفر...

«عجيب امرنا يا اخاه، ما كلّ هذا الانشداد بيننا وبين جدران هذا العالم الضيّق. لماذا نغالط كلّ شيء مصرّين

على تعليبنا في قوالب الدنيا الصدئة. ونحن نرفض الانطلاق الى العالم الارحب الارحم...هل كان محمد فندم في قرارة نفسه يصدّق انه يعثر على ماء؟ لابدّ من الجواب بنعم على ضوء احتمالين. إمّا ثِقةً برحمة الله، او استجابةً لغريزة حبّ البقاء. والمصيبة تكمن في امتزاج هذين الاحتمالين في نفوسنا حتّى ليصعب الفصل جدّاً جدّاً في كثير من النفوس والاحيان، ولكم خدعنا عقولنا وضمائرنا بقبول اكدار وشوائب تزيدنا هبوطاً حين نمزج فينا هذين الاحتمالين مزجاً خبيثاً، فنكون الاخسرين اعمالاً».

فتح صاحبنا عينيه بكلّ اتساعهما وهو يشعر ببرودة الماء بين انامله وكأنّه يخوض به خوضاً، وحدّق جيداً فيما حفر فلم يجد سوى رمل بارد، وبقليل شعور راح يخترق ذلك الرمل ويلامس به صدره ورأسه وجروحه وسائر اعضاء جسده المشرف على فراق الروح حتّى شعر بها تستقر وتهدأ:

«نعم...إنّ روحي قد هدأت...ولكن، ما الذي يُهدّىء الجسد إذا جفّ من الماء، وجسدي ليس جافّاً من الماء فحسب، بل حتّى من الدم تقريباً».

وتوقف كلّ شيء فيه إلاّ نبض متضائل وذاكرة خصبة بخيالات كربلاء، ففي هذه الصحراء بعينها، بكل ما تحمل

رمالها من لهيب وقسوة سالت ازكى الدماء، وعطشت اطيب القلوب، وسبيت اطهر النساء وسطّرت اقدس ملاحم الصبر والتضحية والحب...

كانت صورة الحسين تحتض كل شاشة الذاكرة المبلولة بالدم مع ان صورة العباس كانت تتحرك بين ضفاف جراح الحسين وهو يبذل كلّ ما يستطيع ليوصل الماء إلى الظامئين، فتحرك لسان صاحبنا وهو يحسب نفسه احد جرحى كربلاء ...«يا ابا الفضل يا ساقيَ العطاش اسقني جرعة من الماء بيدك الطاهرة لا تنسني فانا جريح لم تفارقه الروح بعد».

وتذكر الحسن المثنى الذي جُرح ذلك اليوم ولم يُستشهد فشعر بوشائج تربطه به الى حدّ العناق...لكن ذلك الجريح انتشله اخواله فمن ينتشل صاحبنا؟...

ولم يصدّق عينيه حين رأى قطيعاً من المواشي يمرّ على الجهة الأخرى من الشارع العام الذي قرّبه الى محمد فندم زحفه المغلوط. فاطلق صوته واشارته اليدوية متناسياً تهالكه على محتضر الرمال. وبعد الف امل وخيبة رآه صاحب القطيع فخفّ اليه ومعه امرأتان وطفل صغير.

وانفجرت عيون العربيتين بالدموع الحرّى قبل أنْ يشاركهما الطفل ببكاء لاذع...ولم تكن في حنجرة صاحبنا

ايّة نبرة لصوت وهو يصيح من اعماقه «عطشان...اني عطشان اكاد اموت من العطش» لكنّ الرجل كان ذكياً فاحضر ماءً بقربة كانت على ظهر حماره وراح يسقيه وهذا يشرب وهو لا يصدّق أنْ تدخل جوفه قطرة ماء. فابتدرته احدى المرأتين قائلة وهي تبكي بلوعه: «لا تسقه كثيراً لكي لا يصيبه اذى».

ودار حوار حزين شرح فيه صاحبنا باختصار قصته المأساوية وهو يشير الى مكان المجزرة، فملأ الرعب قلوبهم وهم يسمعون ويرون اشياء لا تتحملها قلوبهم وعيونهم، ثم جمدت نظراتهم على توسلات محمد فندم:

ـ ارجو من الله ثمّ منكم أن لا تتركوني في هذا المكان ولكم ثواب الله وحسن جزائه.

ـ آهٍ عليك...انت مصاب بكسر ونخشى ان نحملك على الدابة فتؤذيك، وعشيرتنا بعيدة عن هذا المكان...لكن...لكن...لا تهتمّ فسوف نرجع اليك ومعنا سيارة لنأخذك معنا...

ـ لو اردتم نقلي معكم فالآن يمكنكم ذلك، اما لو تركتموني في هذا المكان فسوف تعودون لي وانا جثّة مملوءة بالرصاص، فانا قريب من الشارع العام والجنود يأتون قبل الغروب ليقتلوا اسراهم.

ـ لا تخف سوف اعود لك قبل الغروب...

ووضع بجانبه قدراً صغيراً فيه ماء وتمر وقطعة خبز. وهمّوا بالذهاب. فقال يائساً من عودتهم:

ـ اقسمت عليكم بحق هذا الشهر الكريم أنْ لا تفطروا هذا اليوم قبل ان ترجعوا اليّ.

وحلّ سير ساعته وناولها للرجل قائلاً:

ـ ضع هذه الساعة في يدك لكي لا تنساني، وهذا الحرز ضعه في جيبك فهو مرويّ عن الرسول ﷺ وانا احمله دائماً معي فخذه ليحفظك من آفات الطريق بإذن الله.

وتركوه وانصرفوا، فبدأت صورة الحسن المثنى تتقلّص امام شاشة الذاكرة الملتاعة. لكن صورة الامام زين العابدين بدأت تحتلها حتّى غطّتها كاملةً.

* * *

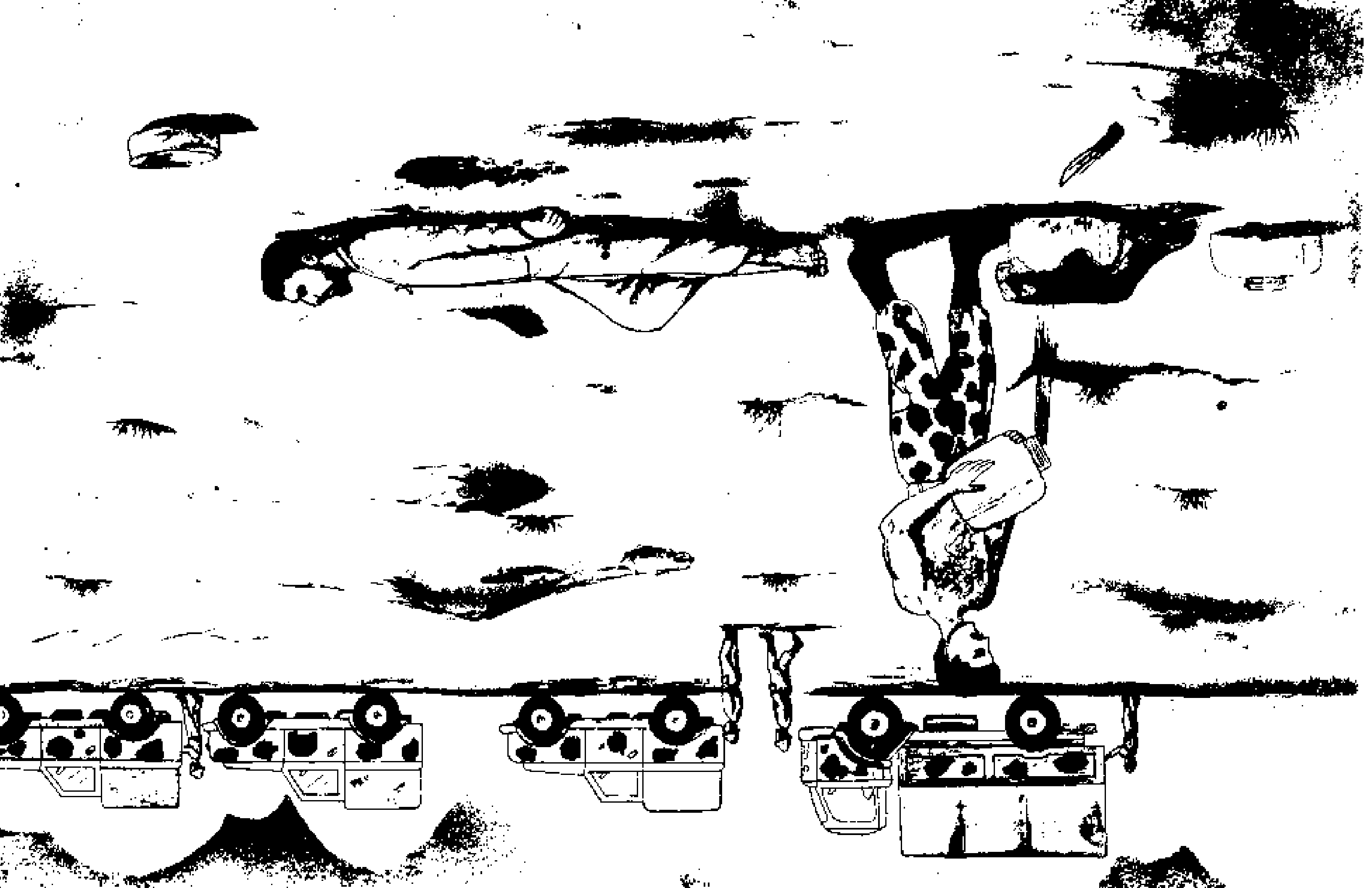

النصف الثاني من النهار

ازداد عواء الريح وهو يطارد حبيبات الكثبان الرملية بقسوة واستعجال، واستمرّ العواء المتواصل ساعتين تقريباً فاشتدّ العطش بمحمد فندم وحين سحب القدر الصغير ليشرب بُقيا مائه وجده مليئاً بالرمال. ولم تمهله شدّة العطش ليفكر، فراح يشرب الماء والرمال حتى افاق على كتلة رملية تسدّ منتصف المريء فغصّ بها حتى خيّل اليه انه سيتقيّأ معدته الفارغة المقطعة من الجوع، وجنّ جنون العطش فأوشك على الهلاك وبدأت روحه تستعد للخروج والعروج فاحسّ بها عزيزة جداً على جسده...كان كل عضو فيه يرف ليمنع انسيابها المرّ من خلاياه واعصابه التي حطّمها الألم. ورفع رأسه وأداره يميناً وشمالاً فلم يَرَ غير السيارات العسكرية وقِطَع الأسلحة الثقيلة تتسابق للوصول الى أماكن القتال لتحصد الابرياء وتدمّر البساتين الجميلة والبيوت المنتشرة على طول الفرات وفروعه القريبة، ولم يجد في نفسه كثير حذر فلم يضع رأسه

بسرعة كما كان يفعل حين يرى خطراً قريباً..وتقدّمت روحه بانسيابها الثقيل وهي تزداد عزّةً آلاف المرات في كل لحظة تمرّ على الجسد الترابي. فراحت يداه تلوحان في الهواء...لمن؟ لسيارات الجيش!

كانت مفارقة كبيرة لا تستحق ان تكون نهاية لأصعب واقسى خمسة ايام في حياته، واغمض عينيه عن هذه الفكرة وراح يلوّح بكلّ ما يستطيع وكأنّه ينفّذ امراً لا يجرؤ على مخالفته بل لا يملك ذلك ابداً...

ورآه كثير من الجنود، غير أنّ سيارة واحدة لم تقف. كانت الارتال تسير بدون وعي الى حيث عارها الاسود، ولم يتألم لتجاهلهم اياه بل تيقّن أنّ الله سيسوق له منهم من كان في قلبه اطلال رحمة. وطال التلويح كثيراً حتى وقفت أربع سيارات دفعة واحدة...

نزل منها عدد من الجنود، فاقتربوا منه، وراحوا ينظرون اليه متأثرين من حالته المشجية وفي عيونهم خطوط متباينة من التعبير قبل أن تنهمر عليه الاصوات:

ـ ها...مابك؟ من فعل بك هذا؟ من أين أنت؟ فردّ بصوت مخنوق:

ـ انا...انا من السعودية.

وعلت دهشة كبيرة وجوههم المختلفة الالوان:

ـ ها...من السعودية؟ ماذا...ماذا يقول...

وتعالى اللغط بينهم. فيما نزل جنود آخرون مهرولين وفي عيونهم تعجّب شديد من مجيء سعودي الى هذا المكان...وقرأ محمد فندم كلّ ذلك في ملامحهم وسمع منهم بعضاً منه فخاف، تلعثم، ثم رمق السماء بطرفه فرأى بخياله احداث قصة تجول احداثها بسرعة في افقه وكأن الله الهمه أنْ يبوح بها فراح يطلق كلماته بدون تصرّف فيما يراه على شاشة الخيال...واطلق جُمَلَةً متقطعة خافتة:

ـ ألستم امرتم بأنْ نخرج من منطقة النجف؟

ـ إي...صحيح.

ـ وانا التزمت بهذا الامر. فـ...فاستأجرت سيارة بمئة دينار لكي اخرج من المنطقة...فـ...فركبت قرب السائق وتوجّه بي للخروج ....و...وكان معي الفان ومئتا دينار...وفي أثناء الطريق طلب مني السائق ان اعطيه الاجرة...فاخرجت محفظة النقود وهو ينظر اليها، ثم اعطيته المائة دينار...و...وأرجعتها الى جيبي، و...وانا...وانا خائف منه لعلمي انه طامع في المال الذي معي...

ـ ايه...كمّل...قل...

ـ وبعد قليل...قام السائق باطفاء محرّك السيارة وزعم ان المحرّك قد تعطّل...فقال لي...انزل من السيارة وادفعها

لتشتغل، فنزلت...فاذا هو ينزل من ورائي ويطلق عليّ الرصاص...ثم...ثم اخذ ما معي من مال...وتركني في هذا المكان لكي لا يراني احد.

فتأثروا بكلامه وبان عليهم انهم قد صدّقوه، فراحوا يشتمون صاحب السيارة ويسبونه اقذع سباب ويتمنون أن يمسكوا به لينال جزاءه...

والحّ عليهم يطلب ماءً فأجابوه متأسفين: انهم لا يملكون قطرة من الماء، فطلب منهم أنْ ينقلوه معهم فاعتذروا عن ذلك قائلين: «لا نستطيع حملك معنا لاننا قد أُمرنا أن لا نقوم بأيّة اسعافات مع المدنيين...ولكن لا تهتمّ فسوف يمرّ عليك بعض المسؤلين ويأخذونك معهم».

ونقلوا خطواتهم الى سياراتهم بسرعة فتحركت ثلاث وبقيت واحدة واقفة، واذا بأحد الجنود ينزل من السيارة مقترباً منه وبيده سكين وزمزميتان فخشي صاحبنا أن يصيبه بسوء، فابتسم الجندي قائلاً:

ـ لا تخف...إن هذه الزمزمية فيها ماء، ولكن، سبق أنْ كان فيها قليل من البنزين ففسد الماء، أمّا الثانية فهي فارغة وانا الآن سوف اقوم بعملية لعلّها تنجح فتشرب الماء.

فشق جلد القارورة الفارغة بالسكين ونزع قميصه ليضعه على نصف القارورة المشقوقة، ثمّ تناول الأخرى

وصب ماءها على القميص لعلّ زيت البنزين يبقى على القميص وينزل الماء مترشحاً صافياً. ورفع القميص وشرب قليلاً على سبيل التجربة وإذا به يكاد يختنق، فتأثر كثيراً من فشل الخطة، فقد كان اختلاط الماء بالبنزين اشدّ من ذكائه. واراد طمأنة صاحبنا فقال بصوت حانٍ:

ـ ابقَ؛ في مكانك ولا تخف، الى أنْ تُنقل من هذا المكان ان شاء الله.

فردّ عليه ردّاً قليلاً، وراح يدعو الله أنْ يوفقه ويحفظه.

* * *

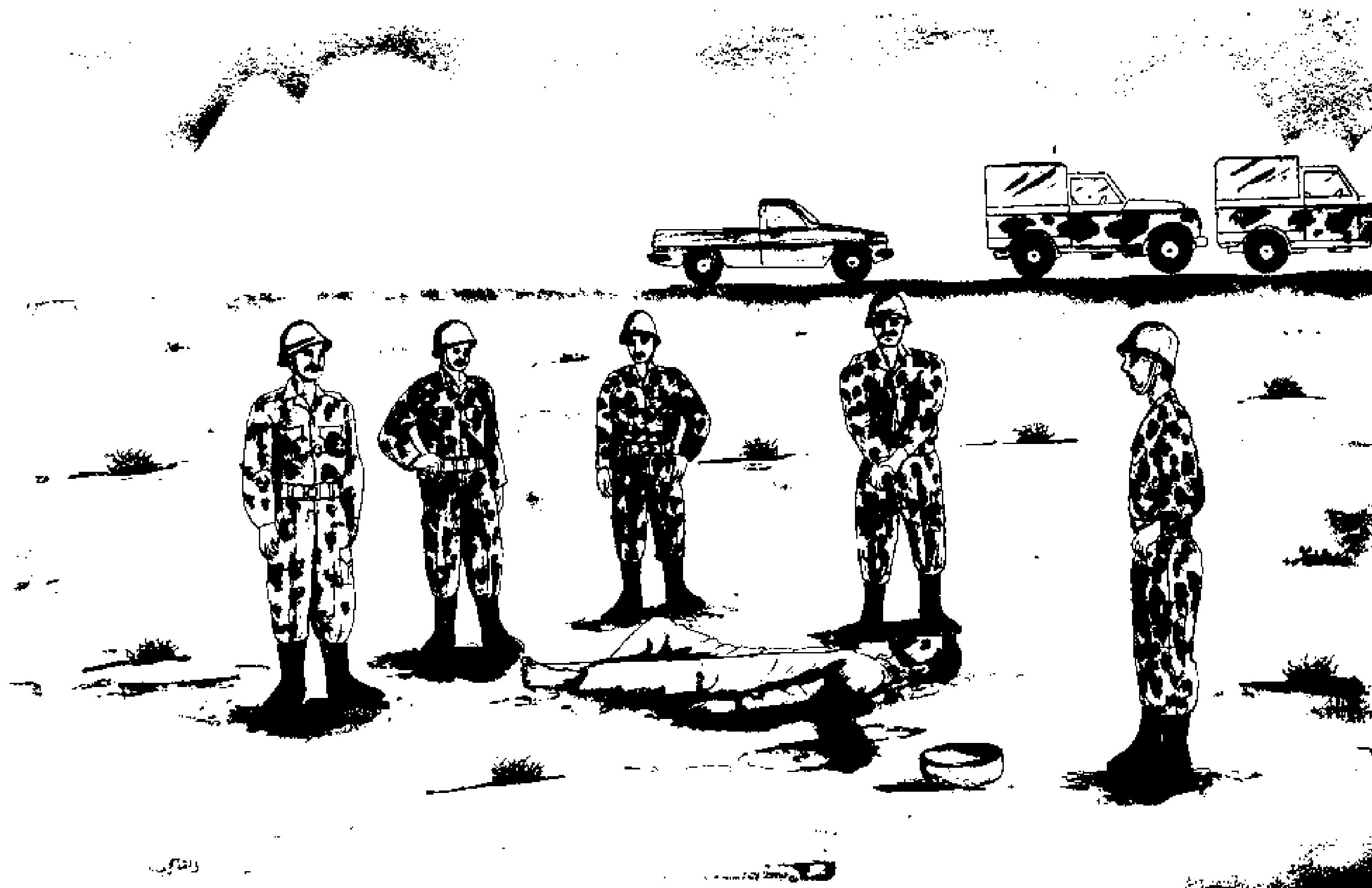

المسدس...وارادة الله

لم يطل الانتظار والتلويح أكثر من نصف ساعة حتى توقّفت ثلاث سيارات، فترجل منها ضابط طويل القامة شديد السمرة واقترب من محمد فندم واضعاً كفيه على جانبي خصره وانفرجت شفتاه عن صوت مشروخ:

ـ من أين أنت؟

ـ أنا من السعودية.

كانت مفاجأة كبرى تنزل على اسماع الضابط فترجمها بالتفاتة سريعة إلى السيارات منادياً بصوت عالٍ «انزلوا»، فنزلوا جميعاً بخفة واستغراب، وحين شاهدوا الجثّة المتحركة وقفوا مذهولين متأثرين وهم يتابعون بنظراتهم خطوط الدماء المتعرّجة إلاّ ضابط غليظ الملامح، صارم النظرات، منتفخ الاوداج كان لون ملابسه العسكرية يضرب إلى الاخضر القاتم، وفي وجهه تركيبة خُلُقية مرعبة وصفها محمد فندم بهذا النص «احسست أنّه من الاعداميين بل وجهه والعياذ بالله يكفي لاعدام البشر» فسأله بنبرة

حادّة قاسية:

ـ من أين أنت؟

ـ من السعودية.

ـ يا ابن الـ...

وانهمرت الشتائم والكلمات النابية جدّاً، وتقدم اليه ويده تحلّ غلاف مسدّسه الاسود، وانحنى عليه نصف انحناءة واضعاً المسدّس في منتصف جبهته وهو يقول: «سافرغ كلّ اطلاقاته في رأسك».

لم تكن رؤية الفوّهات اللاقفة اطلاقاتها بانتظار ضغط الزناد جديدة على صاحبنا، لكنها هذه المرّة كانت مرعبةً قبيحة، فبكى قائلاً وهو يتمنى ان يجد في فمه شيئاً من بصاق ليقذفه في وجه الحياة التافهة التي تعتقل الارواح الجميلة الى أبعد حدود الذلة والاستسلام:

ـ لو كان قتلي يرفع من شأنك فافعل، ولكن قبل أن تفعل اريد ان أقول لك انني مضى عليّ أربعة أيام في هذه الصحراء وانا على هذه الحال من غير ماء ولا طعام، والدماء لا تزال تسيل مني فلا اريد منكم إلاّ أن تسقوني قليلاً من الماء ثم افعلوا ما شئتم.

والقى رأسه متهالكاً على الرمل بعدما باح بكلّ ما في صدره بتدافع خانق وهو يحرّك لسانه الخشبي بصعوبة في

فضاء الفم الملتهب من العطش. وارادت مشيئة الله أمراً فاغمض الضابط عينيه ونفض رأسه ذات اليمين وذات الشمال كأنّه سكران افاق بسبب صدمة عنيفة، ولبث قليلاً قبل أن يُرجع مسدسه الى نطاقه وهو يصرخ بالجنود: «اسقوه ماء، وانقله في السيارة» ومضى الى سيارته فانطلق سائقها بسرعة جنونية.

ودخل الى فمه سائل عذب جداً فراح يشربه بنهم وهو يكاد يسمع كلّ خلية في جسمه تصيح: «الماء...الماء...اهلاً بالحبيب».

وحمله اثنان فوضعوه في سيارة لم يكن فيها إلاّ سائقها يملأ كرسيه بجسم ضخم وهو ينظر إلى خلفه حيث طُرح صاحبنا على بدن السيارة الحديدي مباشرة، وما ان تحركت السيارة حتى بدأ جسمه بالارتفاع ثم بالارتطام مرّات عديدة، فهاج الالم واستعرت الجراح الندية.

كان الطريق وعراً جدّاً فهو جزء من تضاريس الصحراء قبل ان تصل السيارة الى الشارع العام المبلّط ليبدأ السير السريع جداً من اجل اللحاق بالسيارتين الاوليين.

وتأوّه كثيراً وهو يُحسّ برجله تكاد تنفصل عن سائر الجسد مع خوفه من أن يسقط من صندوق السيارة المتموّج

مع قفزات العجلات، ثم تعالى التأوّه حتى وصل الى حدّ الصريخ، فنظر اليه السائق عبر المرآة قائلاً حرفين فقط:

ـ ها...

فاجابه والألم يلوّن نبرته بانحناءات تثير الضحك والبكاء في آن معاً:

ـ قلّل من السرعة لأن رجلي مكسورة...وتؤذيني.

ـ انني على عجل، ولا استطيع تقليل السرعة، ولكن اصبر...المسافة قصيرة.

فصمت وهو يحدّث نفسه...«نعم ساصبر على ذلك لقد صبرت على العطش والجوع والبرد والخوف والألام اربعة أيام الا اصبر عشرات دقائق؟

ومدّ يداً الى رجله المكسورة واخرى الى حديدة في الصندوق ليقلّ اضطرابه، وعضّ على شفته السفلى وهو يقاسي الألم بصبر عصيّ.

وتوقفت السيارة قبل كربلاء بعشر كيلومترات عند سيطرة عسكرية تقطع الطريق.

وهناك قصّ عليهم ما جرى، حيث استأجر سيارة صغيرة بعد أمْر الخروج ثمّ اطلق عليه السائق الرصاص وسرق جميع النقود وتقدّم أحدهم من آمر السيطرة فقص عليه باقتضاب هذه القصّة الملفقة فأمر بانزاله، فأُنزل على

الأرض. وانـطلقت السيارات الثلاث الى وجـهتها بأقـصى سرعة.

وعلى الأرض وضع أحد افراد السيطرة قربه قطعة خبز واناءً مملوءاً بالماء. وبقي ساعتين لا يدري ماذا سيُفعل به.

وبـعد انـقضاء السـاعتين وقـفت سيارة اسعاف عسكرية ووضعوه في داخلها وضمّدوا جروحه.

كانت المسافة الى مستشفى المسيب بعيدة، لكنّ صاحبنا لم يشعر بالألم هذه المرّة فقد خفّض السائق من السرعة مداراةً له وكان مكان اضطجاعه مريحاً وتضميده جيداً. ولم تكن تبدو على وجوه الجنود الذين معه آثار القسوة والوحشية بل لاحظ طيبة خفيّة خلف القسمات.

وحين وصلوا الى المستشفى التفت اليه أحدهم قائلاً:

ـ هل انت فعلاً من السعودية؟

ـ نعم...

ـ اوه...ولكن...لا تقل حين يسألونك انك سعودي، فقد يقتلونك.

ـ وماذا اقول اذن؟

ـ قل...قل انك بدوي.

ـ لماذا بدوي بالذات؟

- هل معك هوية أو شيء يثبت شخصيتك؟

- كلا.

- هذا سبب كاف...

ثم دنا هامساً: «كلّ مدني في كربلاء والنجف وحتى البصرة محكوم عليه بالموت الآن...ولعلّ البدوي في منجى من ذلك...عرفت؟».

بعد ذلك انزلوه برفق وطرحوه في احدى غرف المستشفى وقبل أن يذهبوا عنه انحنى عليه احدهم انحناءة جديدة غير تلك التي رآها من الضابط الجهنمي. فقال:

- هل تريد شيئاً قبل أن نروح؟

- نعم...اريد أن اعرف هل أنتم عراقيون؟

- نعم (وهم مُبتسمون) ولماذا هذا السؤال؟

- لأنني رأيت فيكم المروءة والشهامة وقمتم بانقاذي، وقد رأيت من غيركم ما جعلني اظنّ انّ كلّ عراقي...

- لا تكمل...صدّق نحن عراقيون، واعلم ان من العراقيين الخبيث و منهمم الطيّب ايها الطيّب.

واكمل آخر:

- لا تنس بأن الله قد كتب أنّ الطيبين للطيبين...فلا تبتئس...

وودّعوه بحرارة ثم انصرفوا مهرولين.

* * *

في مستشفى المسيّب

دخـل عـدد مـن الاطـباء ومسـؤولي المسـتشفى الى الغرفة وهم مستاؤون جدّاً من الجنود الذين طرحوا صاحبنا دون أن يخبروهم عن سبب اصابته فالقانون يحضر عليهم معالجة أيّ مصاب باطلاق ناري دون اذن من الشرطة.

ولم تكن القوانين نافذة المفعول في تلك الأيـام الاّ مـا كان منها متوائماً مـع الأحكـام العـرفية وهـذا مـندرج فـي سياقها مما حدا بالاطباء الى أن ينصرفوا عن واجبهم الطبي ليسألوه عن اشياء عديدة تخصه اوليها اسمه ولم يـعرف كيف سبقه لسانه لينطق باسمه الحقيقي مع كل المـحاذير والمـخاوف، فـقد يكـون اسـمه ضـمن قـوائم المـعدومين وباتصال هاتفي مع واحدة من فـرق الجـيش يـقبض عـليه ويـعاد إلى الشـقّ الرهـيب فـينفّذ بـه حكـم الاعـدام رمـياً بالرصاص على أنّ الذي خفّف من ندمه هو أنّه احسّ لحظة هتافه باسمه أنّ القوى الخفيّة التي طالما تدخّلت في قراراته وسلّم لها العنان هي التي جعلته يقول مـا يـقول دون قـرار

شعوري فسبق اللسان الحدر. وسرعان ما جاء السؤال الثاني «من أين أنت» وكان الجواب الخطير حاضراً انه بدوي يعيش في الصحراء، لكن المشكلة تفاقمت مع السؤال الثالث «من فعل بك هذا» فيتلعثم طويلاً وهو يقتضب اجابته «أنّ الجنود يرمون الرصاص في كل مكان فأُصابت اطلاقتان طائشتان رجليه ثم حملوه الى هذا المكان»...

حين خرج الاطباء من عنده انتابه شعور عنيف بالندم فقد كانت القصة الملفّقة عن صاحب السيارة الصغيرة الذي اطلق عليه النار اشدّ حبكةً وأكثر قبولاً مما قاله الآن، وازداد خوفه وقلقه وهو يتذكّر بعض الهفوات اللفظية التي لا تدلّ على أنّ لسانه لسان بدوي.

ومضى يوم كامل دون أنْ يصل اليه أحد.

كانت خلال ساعات النهار عدّة تقارير أمنية تتوزّع على أكثر من مكان حول شخص سعودي عثر عليه قرب مطحنة النجف ونقل الى السيطرة العسكرية القريبة من كربلاء وبعدها نُقل الى مستشفى المسيّب. وكم ندم الجنود على نصيحتهم حيث ظنّوا انهم يدفعون عن هذا المسكين شبح المنية فاذا به لو عمل بما قالوا يُدين نفسه بنفسه لأنّه اخبر بإفادتين احداهما على الأقل ملفقه مما يعني أنّ احتمال تلفيق الأخرى مقبول جدّاً، لينتج عن ذلك احتمالان رئيسان:

اما أن يكون جاسوساً سعودياً أو أن يكون من الثوار الذين اصابهم الجيش فانتحل شخصية رجل سعودي في محاولة يائسة للنجاح.

وحين جاء الصباح الثاني كان أول عمل قام به مدير المستشفى أن اتصل بمديرية الأمن فأخبرهم بأن جنوداً القوا مدنياً جريحاً مجهول الهوية في المستشفى.

ومن مديرية الأمن جرت اتصالات فورية بكل نقاط التَفتيش والدوريات الخاصة وبقيادات الجيش المتواجدة في تلك الرقعة الجغرافية المحتلة أخيراً بفرق الحرس الجمهوري وغيرها. وفي غضون نصف ساعة كانت اكثر من عشرة تقارير قد وصلت الى المديرية حافلة بتفاصيل هامة جدّاً عن رجل يدّعي انه سعودي نجا باعجوبة من الرصاص.

كان محمد فندم يغط في نوم اشبه بعمق الموت حين ايقظه جنديان وثلاثة ضباط، ولم يكد يفتح عيونه حتى ابتدره احدهم بالسؤال:

ـ من أين أنت؟

فتحرك لسانه بذبذبات قاهرة لا يعرف مصدرها العنيف القوة:

ـ انا سعودي.

- نحن نعلم بذلك، ولكن لماذا قلت للأطباء انك بدوي.

واجتاح صاحبنا خوفان: اقواهما على الجنود المساكين الذين حاولوا مساعدته، والثاني على نفسه. فتكلّم بعد صمت قصير:

- هل تعرفون الجنود الذين قاموا باحظاري الى هنا؟

فصرخ احد الضباط وكان برتبة ملازم:

- نحن لا نعرفهم ولا نريد أن نعرفهم، وما نريد معرفته هو سبب ادّعائك أنّك بدوي.

واطمأنّ صاحبنا على سلامة الجنود المساكين إذا ما اعترف، فقال:

- إنّ الجنود الذين اتوا بي الى المستشفى هم الذين اقترحوا عليّ ان ادّعي ذلك لأنني لا املك ايّ اثبات، وابتلع ريقه الخشن وهو لا يدري ما تأثير كلامه عليهم وفي تلك اللحظة تدخّلت العناية الالهية لتحجب عن أكثر من نفس بريئة ظلمَ اعتى اشرار الدنيا، فقال كبير الضباط:

- اتركنا من هذا، وقل لنا ما هدف مجيئك الى العراق؟ ومن فعل بك هذا؟

- جئت إلى العراق من اجل الدراسة، والذي فعل بي هذا هو سائق سيارة صغيرة استأجرتها لتنقلني الى حيث امر الجيش لكنّه حين رأى في محفظتي نقوداً تزيد على الفين

ومئتي دينار اوقف محرّك السيارة وأمرني بدفعها وحين نزلت اطلق عليّ الرصاص واخذ نقودي وتركني في الصحراء.

كان الضباط يلاحظون بدقّة تطابق افادته مع عدد من التقارير التي وصلتهم، لكنّهم لم يصدّقوا بعد بدعواه فصرخوا به، كلٌّ من جانب:

ـ هل انت من المخربين؟ ها قل هل انت من الغوغائيين؟ هل انت من الخونة؟ اعترف احسن لك.

فأجاب بهدوء وتسليم مطلق لارادة الله:

ـ لا...لا...لست كما تظنون، بالعكس، فقد اتيت الى هذا البلد لأصلح ما في نفسي من خراب، واعمّرها بزيارة قبور الأئمة الصالحين، واظنّ أنّ زوارهم معمرون وليسوا مخربين كما تقولون عني انني مخرّب...لا والله لست مخرباً ابداً.

ـ اذن فانت جاسوس سعودي.

ـ انا لست ممن يبيع دينه من أجل دنياه، ولست بخالٍ من الضمير كي اقوم بمثل هذا العمل الذي حرّمه الله ونهى عنه حيث قال: ﴿ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾[1].

---

(١) الحجرات / ١١.

التفت الضباط بعضهم الى بعض وهم يبتسمون ساخرين من هذه السذاجة التي يتكلم بها انسان ما في محضر ضبّاط كانت جلّ مهمتهم مطاردة المتدينين الذين يحملون حسّاً اسلامياً مهما كان بسيطاً، لكنّ هذه البساطة (الغبيّة) هي التي رسّخت قناعتهم بإمكانيّة أنْ يكون هذا المصاب سعودياً فعلاً، لأنّه لو كان من الثوّار لعلم أنّه مقتول في الحال اذا ما اعلن عن تشبّثه بإسلامه إلى هذا الحدّ.

وسرعان ما عادت اليهم عبوستهم وصرامتهم، ثمّ قاموا مغمغمين بتهديدات غامضة.

ولم تمرّ عدّة دقائق حتى دخلت الغرفة احدى الممرضات ظنّها صاحبنا اوّل ما رآها انها تريد استنطاقه ليسمع الضباط عبر لاقطة صغيرة كلامه لعلّ فيه شيئاً يفيدهم. فوقفت بجانبه وسألته مبتسمة ابتسامة ناعمة حانية:

ـ هل انت سعودي؟

ـ نعم.

ـ حيّاك الله، إنْ شاء الله معافى، اهلاً بك ايها الغريب الطيب. لكن...هل لك احد تعرفه في هذه البلدة أو النواحي القريبة من هنا لأُخبره أنك في المستشفى؟

ـ لا اعرف احداً، ولماذا؟

ـ ليقوم بتهريبك من هنا قبل أنْ يقتلوك.

ـ ومن هؤلاء الذين يقتلونني بغير ذنب؟

ـ انهم رجال الأمن يحققون معك ثم يقتلونك.

فصرخ بصوت عالٍ وهو يتكلّف الإثارة العصبية ليسمع الضبّاط كلامه جيداً:

ـ إنّ شرطة الأمن لا يؤذون احداً من غير جرم، وانا ليس عليّ جرم يستدعي قتلي، والذي يهرب هو المجرم وانا لست بمجرم، انا مجنيٌّ عليّ. اتيت بلدكم مسالماً دارساً فلماذا تُسرق اموالي؟ ولماذا يُطلق عليّ الرصاص؟

عند ذلك دنت منه الفتاة هامسة:

ـ انا اعرف أنْ لا جرم لك في شيء، ولكن ليس من المستبعد أن يقتلوك لأنك سعودي.

«نعم...إن تلك الفتاة قالت لي ذلك الكلام بصوت خفيض وهي متأثّرة وكأنّها تخفي في نفسها شيئاً، ثمّ خرجت بخيبتها لأنّها لم تلقَ جواباً على سؤالها ومهمتها، ولكن...ربما تكون صادقة في قولها لي بأنّهم ربّما يقتلونني لأنني سعودي، فلربما تكون جنسية ما سبباً في قتل آدمي...ألم يقتل الظالمون طفل الحسين الرضيع قريباً من هذا المكان؟».

* * *

نقطتان من الرحمة

كـان الاسـبوعان اللـذان قـضّاهما مـحمد فـندم فـي مستشفى المسيّب يدرّان على جراحه مزيداً من الآلام، حيث لم تُجرَ له ايّة عملية جراحية، بل لم تكن هناك رعاية طبية، ولا اغذية مناسبة كافية، وقد بدا المستشفى الذي طالته عدّة قذائف وضعضع بعض اركانه اكثر من انفجار، كأنّه محجرُ خَرِب عافه الناس خوف الوباء.

لكن الله فتح لصاحبنا نقاطاً رحيمة في سمائه المدلهمّة المجهولة المديات، فقد كان اهالي المرضى حين يأتون اليهم ويرونه على تلك الحال يلتفّون حول سريره ويسألونه عـن قصته وحين يخبرهم بحكاية سائق السيارة التي هي حديث ملفّق عن مأساة بسيطة مخفّفة آلاف المـرات عـن مأسـاته المركّزة كحامض نفاذ قاتل، فانهم يتألّمون كثيراً مع دمـوع حرّى يذرفونها على غربته، وكـان أكـثرها واحـرّها دمـوع الأمهات التي تحمل عيونهن اسرار حزن عميق. فيجلبون له مع كلّ زيارة انواعاً من الأطعمة ويجلسون مـعه يـؤنسونه

ويسلونه بالأحاديث والطرائف.

وانقبض قلبه ذات يوم وهو يسمع من احد الزائرين همساً كان يسرّبه الى آذان اخيه المريض الراقد على سرير مجاور سريره حيث كان يقول: «إنّ خمسة شبّان كادوا في اليوم الثالث من شهر رمضان يعدمون، ولكن الله نجّاهم بمعجزة في تلك الساعة. واستطاعوا الهرب من ساحة الاعدام، لكنّهم حين اتعبهم الركض واللهاث والعطش والنزف لجأوا إلى بيت قريب فاذا صاحبه من الرفاق الحزبيين في حزب البعث، فبلّغ عن وجودهم في اليوم الثاني ليُقبض عليهم ويُعدموا عصراً في المكان نفسه».

ونشف ريق صاحبنا وهو يسمع ما يسمع وراح يحمد الله ويشكره عشرات المرّات على نجاته وتداعت الصور امام عينيه وتذكّرهم واحداً واحداً وسالت دموعه مع المشاهد المرعبة، فاكتشف أنّه يخاف من تذكرها وتعجّب من نفسه كيف استطاع أنْ يعايشها دون أن يموت؟

ولم تمض ايام قليلة من الأسبوعين حتّى منع رجال أمن المستشفى أنْ يزوره أيّ شخص اطلاقاً، بل راحوا يُرهبون ويتوعدون اولئك الطيبين الذين يجلبون له الطعام على الرغم من ظروف الحصار الغذائي الذي يقاسونه بمرارة وذبول. ولا ينسى ابداً صوت احد الاشخاص زاره

في يوم قريب ثم مُنع من الزيارة، حيث كان يصرخ باعلى نبراته الصوتية في وجوه الذين منعوه: «لماذا تمنعونني من زيارة ذلك المسكين الغريب الذي ليس له احد هنا...ولنفرض اننا لا نعرفه وليست لنا علاقة به اليس من الواجب زيارة المريض؟».

وينفتح باب رحمة جديد، حين يجيء احد افراد المستشفى

فيدخل غرفة صاحبنا عن طريق الصدفة ليرى جسداً نحيفاً جداً ملقىً على سرير في غرفة نائية وليس معه مريض اخر يؤنسه ويسليه بعدما نقلوه من غرفته الأولى، واستطاع بحدسه أنْ يعرف أنّه ذاك السعودي الذي يُحكى عنه، فاقترب منه وعلى وجهه ابتسامة حبيبة فقال بصوت حانٍ مشوب بنبرة مزاح وفكاهة قد تبدو ثقيلة للوهلة الأولى:

ـ لماذا انت نحيل هكذا؟

ـ وعلى الرغم من سؤاله التافه إلاّ أن محمد فندم استبشر بهذا القادم ليكسر صمته الحجري، فقال باندفاع.

ـ لأنني نزفت أكثر دمي اضافة إلى أنني سأموت من قلة التغذية.

ـ ولماذا لا تأكل؟ (قالها بتعجب مصطنع فاضفى لعبارته مع لهجته العراقية كثيراً من الجمال والالفة). فاجابه

صاحبنا مجارياً:

ـ لأن الطعام كثير، وانني متحيّر ماذا آكل وماذا ادع. فعلتْ قهقهته التي تدلّ على قلب خُلِق ليوزّع البشائر والظرافة على وجوه المتعبين، وبعدها قال بهدوء:

ـ لا تهتم حبيبي...سوف احضر لك الغداء والعشاء كلّ يوم...ها...هل نسيتُ الافطار؟...كذلك الافطار لا تأس على وجبة الصباح ياصديقي...اضبط الساعة ولن اتأخّر عن المواعيد دقيقة واحدة ان شاء الله.

وكان عند وعده فلم يتأخر دقيقةً الا يوماً واحداً فأطال الاعتذار والاسترضاء وكأنه ارتكب جريمة لا تغتفر...

وحين مرّ الاسبوعان صدر أمرٌ بنقل صاحبنا الى المستشفى الجمهوري في وسط محافظة بابل القريبة، لاجراء العملية الجراحية في الرجل المكسورة هناك.

وحين ودّع هذا الرجل الطيب اعطاه امانتين الأولى خاتمان من العقيق اليماني كانا في يديه والثانية مفاتيح المدرسة التي كان يدرس فيها، وقال له: «احتفظ بهما حتّى القاك ثانيةً، وان لم ترني فالأمانة الأولى هدية لك، وأمّا الثانية فألقها في التراب».

وطال العناق، وتناثرت الدموع قبل أن يفترقا إلى الأبد.

* * *

الى المستشفى الجمهوري

كانت سيارة الاسعاف تخبّ طريقاً مخضرّاً يربو طوله على الخمسين كيلومتراً لتصل الى الزاوية الأخيرة من المثلث الجغرافي القائم الزاوية حيث ينفرد النجف في الزاوية البعيدة عند القمه بينما تتربع عند كربلاء الزاوية القائمة، وقريبة منها زاوية مدينة الحلة مركز محافظة بابل التراثية العريقة.

كانت شوارعها مرتّبة مشجّرة، ومع أنّها تعرّضت لدمار كبير، اثناء قمع التحرك الجماهري، من قبل الجيش فقد بدت نظيفة أكثر من غيرها.

كان المستشفى الجمهوري احسن حالاً من مستشفى المسيّب، ففيه العناية الصحية، والنظافة الدائمة والادوية الكافية تقريباً على الرغم من ظروف الحصار والحرب إلاّ ان الوجبات الغذائية كانت ناقصة، بل ان وجبة العشاء قد حذفت اصلاً من القائمة ولكن محمد فندم لم يعان طويلاً، فقد اغدق عليه اهالي المرضى بأطعمة فضلّها كثيراً على اطعمة

المستشفى، وكانت اليد العراقية تتفنّن في طهيها على بساطتها وتأثرها بالحصار الاقتصادي. بل انّ بعضاً من الزوّار كانوا يأتون خصيصاً لرؤيته واطعامه وهم يشجعونه على الاكثار من الأكل لترجع له صحته الأولى، فعادت الابتسامة الى وجهه وخفّت حدّة آلامه ومخاوفه العنيفة حتى استطاع الانسجام مع الناس والحياة من جديد بعدما هوت في عينه وقلبه صورة الانسان الى حدود مخزية الى جانب انسلاخ شبه تام من الحياة حين عاش مع الموت اياماً عديدة في فراش واحد.

ومرّت عليه ثلاثة أيام وصفها في مذكراته بقوله «مرّت عليّ وانا في وسط تلك الأحضان، وفي تلك العناية الانسانية التي لا انساها ابداً».

وفي اليوم الرابع دخل عليه مدير المستشفى ليفتح له ملفّاً خاصاً بحالته الصحية قبل اجراء العملية الجراحية، ودار حوار هادىء سيطرت عليه اسئلة المدير المباشرة:

ـ ما اسمك الكامل؟

ـ محمد حسن محمد فندم.

ـ الجنسية؟

ـ سعودي.

ـ هل معك هوية أو أيّ شيء يثبت ذلك؟

- لا يوجد غير الجواز الذي خلّفته في المدرسة الدينية في النجف.

فالتفت المدير الى الأطباء الذين حوله قائلاً:

- في مثل هذه الحالة يلزم ابلاغ شرطة الأمن لاحضار الجواز.

وجرت الأمور في غير صالحه حين اتصلوا بشرطة الأمن واخبروهم بأن لديهم مصاباً سعودياً وليس معه شيء يثبت هويته سوى جوازه الذي خلّفه في (مدرسة الآخوند الدينية) احدى مدارس حوزة النجف الأشرف. فجاء عدد من افراد الأمن وفتحوا معه ملفّاً خاصاً وسألوه عن الجواز وعن عنوان المدرسة الدقيق وعن المحلّ الذي ترك فيه الجواز من الغرفة، ورقمها واشياء اخرى، وحين انصرفوا لم يلبث الاّ قليلاً حتى نُقِلَ صاحبنا الى المستشفى العسكري، وكان اسمه فقط كافياً لادخال الرعب في قلبه، لكنّ رحمة الله كانت لاستغاثته بالمرصاد، فحين وصلوا به الى المستشفى وارادوا ادخاله الى احدى الردهات رفض المسؤلون قبوله لأنه لا يحمل أيّ شيء يُثبت شخصيته وجنسيته، فأُعيد ثانية إلى المستشفى الجمهوري، لكنهم لم يأخذوه هذه المرّة إلى غرفته ذات الاسرّة العشرة في الطابق الثاني، انما صعدوا به الى الطابق الثالث وتركوه في

غرفة خالية وجعلوا على بابها احد المسلحين، واحسّ انه في سجن مرتين؛ مرة حين الفى نفسه وحيداً في غرفة يوصد بابها مسلح غليظ. والثانية حين سمع من الممرضين كثرة ترديد كلمة «سجن» على الطابق الثالث الذي يحلّ فيه.

ومرّ يوم كامل لم يَرَ فيه إلاّ أسرّة سبعة فارغة ووجه السجّان المكفهر الذي منع كلّ شخص حاول الوصول اليه أو اراد ايصال شيء من الطعام، بل ا نه كان يراقب الأطباء والممرضين خلال فترات الفحص واعطاء الدواء فلا يكادون يكملون مهمتهم حتى يجبرهم على النزول.

ونام تلك الليلة وهو يشعر بالوحشة والغربة تهبطان عليه كاعنف ما تكون، وقد زاد الظلام من الشعور بالألم والاختناق.

* * *

أنيس من السماء

فتح عينيه في الصباح بتثاقل ووجوم، فرأى على السرير المقابل جسداً مغطى بكامله، فتعجّب والتفت إلى رجل الأمن الجالس عند الباب سائلاً:

ـ ما هذا الذي على السرير؟

ـ انه جندي هارب من الجيش اطلقوا عليه الرصاص فأصابته واحدة في صدره...بين القلب والرئة بالضبط.

وبدت ابتسامة عريضة فسحت المجال لاسنانه الصفراء أنْ تتنفس بعد طول اختناق حين نطق جملته الأخيرة دون أنْ يأبه بالذعر البادي على وجه محمد فندم الذي انتفض يسأل ثانيةً:

ـ ولماذا احضروه الى هنا ولم يضعوه في ثلاجة الموتى؟

وفسح مجالاً اكبر لأسنانه بابتسامة غريبة صاحبتها هذه المرّة قهقهةٌ لا يعرف المكان الصحيح لإطلاقها وهو يقول:

ـ لا تخف...فانه ليس بميّت.

وتناهت الى سمع المصاب ذبذبات الحوار فاستيقظ وازاح الغطاء عن وجهه ونظر بعينين واسعتين ضاربتين الى الصفرة نحو صاحبنا وعلى وجهه الأبيض ابتسامة حلوة ترجمتها اسارير وجهه مع ثغره الأبيض الشفتين فشعر محمد فندم براحة وانسجام مع هذا الوجه الصبوح فقال محيّياً:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.

ـ اسمك الكريم؟

ـ اسمي جعفر (وقد ملأت الابتسامة وجهه بالكامل)، وانت ما اسمك الكريم؟

ـ محمّد...وانا من السعودية.

فقفز بخفّة وتعجّب من سريره باتجاه سرير هذا السعودي الذي لابدّ أنْ تكون له قصة في بلد الغرائب والعجائب المأساوية ولم يتخيّر الفاظه بدقة، كان همّه أن يعرف عن هذا الغريب المسكين كل شيء في لحظة واحدة فقال دون تردد:

ـ لماذا اتيت إلى هنا؟ ...وما هي قضيتك؟

ـ أتيت لطلب العلم. وكاد أنْ يقضي عليّ سائق سيارة

صغيرة...واندفع يحدّثه عن هذه القصة التي يُصِرُّ صاحبنا على تسميتها بـ (تسديد السماء) حيث انقذته من موت لا يدفعه شيء. ووصف له بعضاً من معاناته خلال ايام الاصابة الأولى حين رآى منه تشجيعاً مستمراً على البوح بكلّ ما يحمل صدره. وقد تأثّر كثيراً مما سمع وراح يطلق الزفرات واللعنات على اناس مجهولين متأفّفاً من هذه الظروف التي يتقافز على اكتافها الكلاب.

وابتدأت صداقة حميمة حدّاً بين هذين السجينَيْن المصابين وقد تركت اثارها الواضحة على نفسية وذاكرة صاحبنا الذي يذكر ذلك الصديق بكل احترام واعتزاز حيث كتب في مذكراته عنه:

«نعم...عجيب ذلك الجندي الشيعي ـ جعفر ـ لقد اصيب برصاصة كادت تكون قاتلة لأنه رفض الاعتداء...وعجيب هو، كان يهتمّ بي وكأنّني اخوه مع أنّه مصاب في صدره بين قلبه ورئتيه، وانا في ذلك الظرف لا استطيع الحركة لا يميناً ولا شمالاً، حتى قضاء الحاجة الافراغي كان يتمّ وانا على السرير، والجندي المصاب لا يسمح لي ان افكّر في شيء ولا لحظة واحدة خوفاً منه على صحتي وكان دائماً لطيفاً معي في حديثه ونكاته الطريفة».

ومرّت الأيام حلوةً على الرغم من آلام الجراح، كانت

مليئة بالأحاديث وقصص الحروب وحكايا العجائز، بعضها مضحك وبعضها بليد، لكنّها جميعاً تحمل كثيراً من العبر التي لا نعرف قيمتها إلاّ حين نسقط في الاخطاء نفسها.

ذات يوم سأله جعفر بعد أنْ اعاد عليه صاحبه قصة انقاذه قائلاً:

ـ شوف عيني ابو جاسم...قصة انقاذك عجيبة محيّرة انا ابن هذا البلد، واعرف جيّداً حقد (رجال الخوف) الذين تسميهم انت «رجال الأمن»...الذي حصل لك غير معقول عندي، إلاّ أن تكون قد عملت عملاً عظيماً عندالله، فماذا فعلت؟

ـ لقد حدّثتك عن حياتي وايام دراستي.

ـ يعني لا يوجد شيء من هنا...من هناك؟

ـ كلها اشياء عادية طبيعية.

ـ ألم تنقذ نفساً من الموت مثلاً؟

وصفّحت الذاكرة المتعبة اوراقها بسرعة حتى استقرّت على ورقة آخر يوم من أيامه في البلد قبل السفر إلى العراق. وسكت طويلاً بدون حراك وعيناه جامدتان قبالة السقف الأبيض، وحين طال الصمت اكثر من حدود الاحتمال هتف جعفر محتجّاً:

ـ ها...ماذا جرى...أين سرح بك الخيال؟

واستفاق صاحبنا على حروفه بذهول وهو يهمس:

ـ آه...ذكرتني والله...

ـ بماذا؟

ـ بذاك الغريق.

ـ غريق؟ أيّ غريق؟ ...هل انقذت غريقاً يا محمد؟

ـ نعم.

ـ اذن فخذها واحدةً بواحدة.

ـ الحمد لله.

ـ يا عيني...الحمد لله فقط...الف الف الحمد لله. ولا تنس انك الآن مدين لرحمة الله، اعني أنّ امامك طريق طويل من الشكر وفعل الخير لابدّ أن تقطعه.

ـ أحسنت واعظاً يا أخي.

ـ وأين تمضي عني اليوم...لن ادعك تنام ابداً حتى تقصّ عليّ كيف انقذته.

ـ وإن لم افعل؟

ـ أُميتك من الضحك بألف حركة وحكاية...

وضحكا معاً حين اعلن صاحبه استسلامه الكامل امام هذا التهديد الجدّي، ثمّ راح يقصّ عليه بانسياب يثير النعاس: حين قررت الذهاب إلى العراق واقرّ ذلك أهلي جميعاً واكملتُ مستلزمات السفر كان لابدّ لي من توديع البحر على عادتي في كلّ سفرة مهما كانت قصيرة ومع أنّي لا اكتفي

بالتمشّي على الساحل فانني اصبح مضطراً لآخذ شباكي واطلب تصريحاً من خفر السواحل بالنزول إلى البحر...كانت الساعة السابعة مساءً حين ركبت زورقي «النهروان» وكان بدون محرّك، لأنني ظننت أنّ (الخطرة) تكفي...

فاعترضه جعفر مستغرباً:

ـ الخطرة، ما هي الخَطْرة؟

ـ هي...هي قصبة طويلة صلبة يُدفع بها القارب حين تُغرس في قاع المياه الضحلة ثمّ تُرفع لتُغرس ثانيةً غرساً اشبه بالدفع.

وضحك جعفر طويلاً وهو يصيح:

ـ آه...عرفتها...عرفتها...

ـ ماذا تسمونها انتم؟

ـ نسميها...نسميها المَردي...

فضحك محمد فندم من اعماقه وهو يقول:

ـ يا اخي...المَردي هو الميّت بتشديد الياء...

وضحكا معاً فكلّ واحد منهما كاد أن يكون مردياً، لكنّ جعفراً استدرك بعيد نوبة الضحك قائلاً:

ـ كن واثقاً أنّ لفظة المردي فصيحة فقد وجدتها في معاجم اللغة وحتى تثبت براءة وفصاحة (الخَطْرة) تفضل واكمل القصة:

ـ كنا في منتصف الشهر القمري وهذا اوان ارتفاع مناسيب المياه اكثر من أيّ آنٍ آخر، وحيث انني لم احصل على تصريح بالنزول الى البحر اكتفيت بنصب شباكي قريباً من الساحل امام مدخل المركز بالضبط، وبعدما اكملت عملي واسترحت سمعت صوتاً يأتي من بعد: «راح اموت...الحقوني» وميّزت جهة الصوت الذي يصارع اتجاه الريح المعاكس، وحين حدّقت جيّداً رأيت رأساً يعوم على وجه الماء تارة ثمّ يغط اخرى، وانطلقت بالقارب الذي لم تكن تحركه إلاّ هذه القصبة...اقصد المردي...وكم تمنيت أن اجد المحرك امام عيني حتى اصل إلى ذلك المسكين بثلاث دقائق...تصوّر لقد وصلت إليه بعد ثلث ساعة، لكنّه كان ذكياً فهو عندما يغطس يضرب القاع برجليه ليرتفع حسب قانون ردّة الفعل الى الأعلى فيجد فرصة جديدة لتنفس كمية من الهواء...وحين وصلت اليه وامسكت به وجدته ثقيلاً جداً فلم استطع انتشاله لميلان الزورق فقلت له انزل واضرب القاع بكل ما تستطيع كما كنت تفعل حتى اتلقفك حين ترتفع، ونجحت الخطّة...قلت له حين اجلسته قربي ما الذي حملك على النزول في دوّامة الماء (الخورة) هل تسمونها الخورة يا جعفر؟

ـ نعم...نسميها الخورة.

ـ هل هي فصيحة ايضاً؟

ـ لست ادري لكنني اقسم على انها فصيحة.

وتضاحكا برهةً قبل أنْ يسأله:

ـ كيف تُقسم وانت لا تدري؟

ـ اشعر بها تملأ ذوقي...ثم لا تنس ان كلمة الخور فصيحة ولها معناها نفسه فهي مصبّ النهر في البحر. ما علينا...اكمل القصة.

ـ كانت خطورة اخرى في الخور غير دوامته المميتة حيث تتواجد فيه اسماك خطرة مؤذية، وحدثني الذي انتشلته ان عنده شباكاً صغيرة اشتراها للتسلية فانشغل بها حتى ارتفع الماء فعافه اصحابه من خشية الغرق وبقي متمسكاً بالشبك الذي يسحبه باتجاه الخور دون أنْ يشعر. ثم انزلته على (الكورنيش) لأنني لو حملته معي الى المركز لوقعت في مصيبة لأنني لم احصل على تصريح بالنزول لكن المصيبة كانت بانتظاري على يد الخفير (حسن) الذي صاح بي حين اقتربت من المركز:

ـ يا فندم.

فأجبته: نعم....

فقال: ما رأيت شخصاً...غريقاً على طريقك؟

وتحيّرت في الجواب فاذا قلت: نعم سألني أين هو، وان

قلت لا فسيقول ما الذي انزلك بدون تصريح، فأجبته بكلمة واحدة تقع في منتصف تقاطع الحيرة:

ـ شفته.

فصرخ قائلاً: وأين هو؟

فقلت: على الكورنيش.

فاندفع يهدّد ويلقي عليّ المسؤولية كاملة.

ولم ينفع معه سرد قصة انقاذه بل اوقفني ولم يطلقني إلاّ بعد ان حضر المنُتشَل نفسه، فانه تبع أهله الذين جاؤوا يسألون عنه في المركز، عندها صدّق بي أهله والخفراء، لكن اتدري ما الذي حصل بعد ذلك؟

ـ لا...

ـ تركنا الخفراء اكثر من ساعة ثمّ نادوا باسمائنا وطلبوا منا ان نوقّع على المحضر، وكنت آخر الموقعين على ادعائهم أنّهم انقذوا غريقاً من قلب البحر دون أيّة اشارة إلى دوري في ذلك ولم انطق إلاّ بهذه الآية حين وقّعت ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾[1].

* * *

(١) النمل / ٣٥.

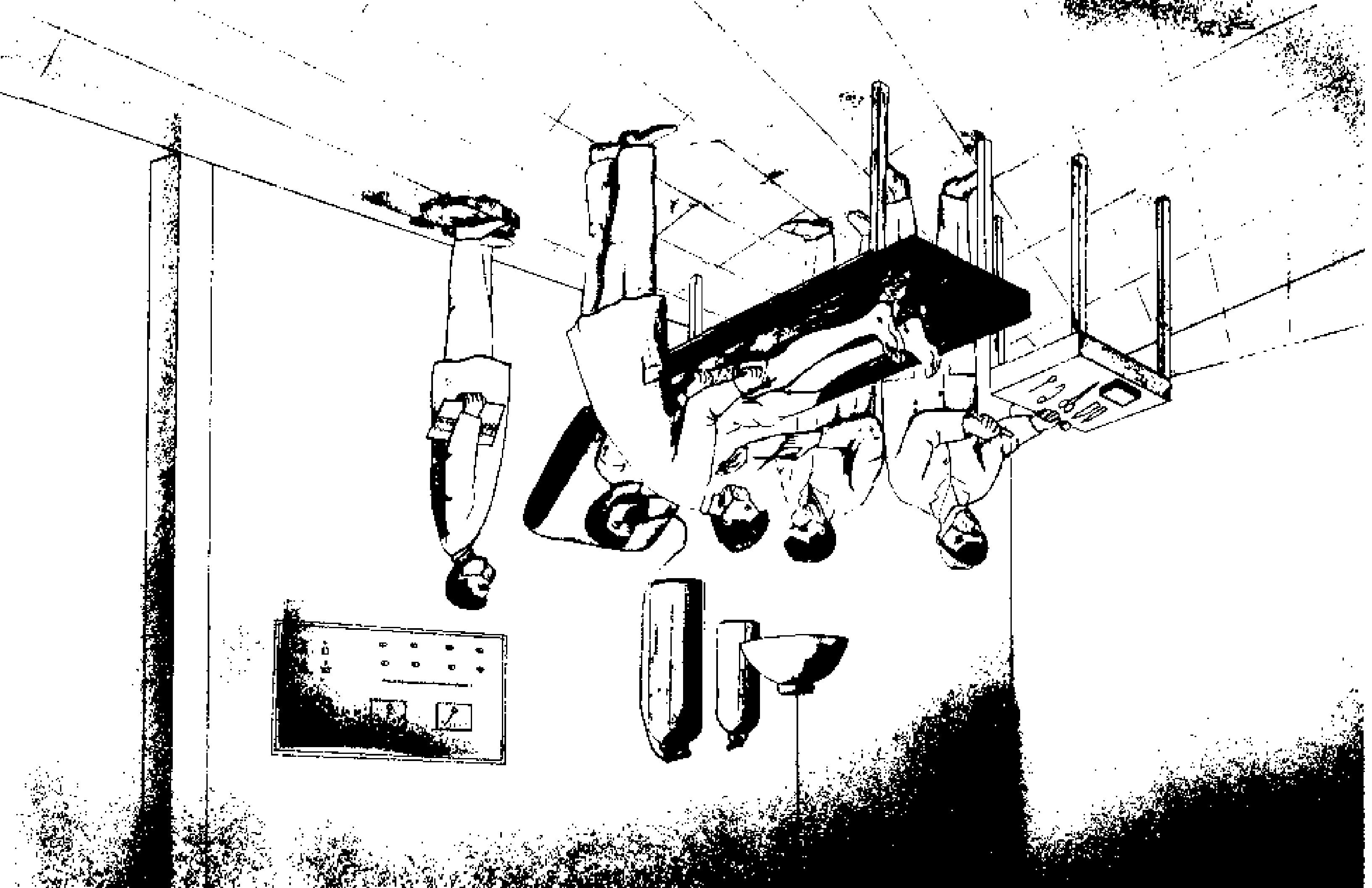

غرفة العمليات

مرّ عليه اربعون يوماً في سجن المستشفى دون أنْ يشعر بأنّه سجين إلاّ في اليوم الأول فقط، واجريت له عملية غير جراحية لمعالجة القصر في رجله المكسورة بدون تخدير وكم آلمته واوجعت احساسه بعنف، وليتها نجحت. فأوعدوه بعملية جراحية تأجّل ميعاد اجرائها ثلاث مرّات لكثرة المصابين.

لكنه اليوم يدخل غرفة العمليات وتجرى له العملية الجراحية الموعودة غير ان التخدير لم يسيطر على وعيه كاملاً فكان يشعر ويتألّم ويسمع حوارات الأطباء والمساعدين الاّ أنّه لا يستطيع الحركة ولا الكلام. وسمعهم يقولون قبل اخراجه انها نجحت فشكر الله صامتاً بقلبه ونذر نذراً قربةً الى الله ثم اصعدوه الى الطابق الثالث، فقال له احد الأطباء بعد ان زال بعض التخدير:

ـ لماذا لم يسيطر التخدير على ادراكك؟

ـ لا ادري...ربما لأنّ جسمي لم يعتد على الأدوية. او

ربّما كانت نسبته قليلة.

فابتسم الطبيب وقال:

ـ هناك احتمال آخر لكنّه لا يصدق عليك.

وكانت عينان زائغتان اضـرّهما الانـتظار تـحتضنانه بالنظرات قبل وصول الصدر المصاب الى صدر محمد فندم معانقاً ومهنئاً بالسلامة ونجاح العملية، فتمتم بلسان ثقيل:

ـ أخي جعفر، اسقني ماء.

ـ في المـاء خـطر عـليك الآن، سأسـقيك بـعد ذهـاب التخدير كلّه عن جسدك.

ـ ولكنني سوف اموت من شـدّة العـطش اسـقني ولو قليلاً ارجوك.

كان غير صادق ابـداً فـيما قـال فـلو لم يكـن جسـمه يتحمل عطشاً اشدّ من هذا لما وصل الى هذا المكان ابداً، غير أن كلامه كان كافياً لاختراق قلب صديقه جعفر فملأ مـلعقةً وفرّغها بخوف في فمه لكنه لم يشعر بالماء فكرر نداءه ثانية بتوجّع وتوسّل فأجابه بحنان بالغ:

ـ سأعطيك الثانية، ولكن لن اكون صـديقك اذا طـلبت الثالثة.

وفرّغها في فمه بخوف شديد عليه، فحرّك لسانه دون أنْ يشعر بشيء اسمه ماء فقال:

ـ هل سقيتني؟

ـ نعم، أوَلمْ تشعر؟

ـ لوبقيت تسقيني مراراً بهذه الملعقة فلن ارتوي الآ أن تسقيني بالقدح... ارجوك ناولني القدح ولا تخف علي.

وقطع الحوار دخول الطبيب الذي اجرى له العملية ليطمئنّ على سير صحته فسأله جعفر بلهفة:

ـ دكتور...اخي السعودي عطشان، هل يوجد خطر لو سقيته؟

ـ اذا اراد ان يأكل او يشرب فأعطه.

قالها وهو يكمل فحصه السريع فصاح محمد فندم بصوت عاودته قوته الأولى:

ـ اخي يا جعفر؛ لا اريد القدح، بل ائتني بالأناء كلّه.

وخفّ جعفر الى اناء الماء فناوله اياه ليشرب حتى يرتوي ثم اكل حتى شبع.

وعادت الحكايات والطرائف الى سابق عهدها وهي تكتسب كلّ يوم حلاوة جديدة متناغمة مع تماثله البطيء للشفاء، حتى انقضى تسعون يوماً من اصل مئة هي كلّ فترة بقائه في المستشفى الجمهوري.

ولا ينسى ابداً شخصين (لا نستطيع ذكر اسميهما حفاظاً على سلامتهما) صعدا اليه فصافحه احدهما بحرارة

كأنّه يعرفه وهمس في اذنه:

ـ لا تنزعج مما افعل فهذا عُذْر للوصول اليك، قل لي الآن بماذا تأمر؟

فتفاجأ بقوله، ولم يدرِ ماذا يطلب، وحين فكّر قليلاً قال بصوت منخفض:

ـ مثل ماذا؟

ـ أيّ شيء نقدر على فعله.

ـ هل باستطاعتكم جلب جوازي من المدرسة التي في النجف؟

ـ لا. نعتذر عن ذلك لأن المنطقة خطرة حالياً.

ـ هل تستطيعون ايصالي الى وطني؟

ـ نأسف كثيراً، لا نستطيع ذلك ابداً.

فقال بانكسار:

ـ اذن...ليس لي حاجة عندكم.

ـ بل سوف نحضر لك ثوباً وحذاءً وملابس داخلية، وبعض الاشياء اللازمة.

ـ ليس لي حاجة بتلك الاشياء وانا في هذا المكان، واشكركم على هذا الاهتمام.

فقرّب رأسه من رأس محمد فندم وراح يهمس بنبرة عذبة حانية:

ـ اصبر، فالمؤمن دائماً مبتلى...اودعك يا اخي، في امان الله.

ـ وملأ هذا الموقف تفكيره يوماً كاملاً حتى وصلته الهدية التي وُعد بها فاستبشر كثيراً واحسّ انه في شبه عيد.

* * *

ذكريات لا تُنسى

في الاسبوعين الأخيرين مرّت على صاحبنا ثلاث حوادث ما زالت تملأ خياله بحزن وحسرة، اولاها حين استُدعي جعفر للتحقيق ذات صباح ولمّا أُعيد الى الغرفة ضربه رجل الأمن القابع على كرسي امام الباب والسلسلة فوق رأسه يتدلى منها قفل كبير، ولو كان بامكانه القفز لنهض وضربه في الحال، لكن الاصابة منعته فظل واجماً وهو يرى صديقه الحميم واضعاً يده على خدّه المحمرّ، وحين سأله عن السبب لم ينطق الا بكلمة واحدة «بسيطة».

وكانت الثانية خروج جعفر من المستشفى حين سالت منه دموع غزيرة كبيرة وهما لا يعرفان كيف يودّع احدهما صاحبه وظلّ محمد فندم يبكي يومه وليلته وهو يصارع وحشة غياب جعفر على الرغم من وجود عدد من المرضى السجناء في الغرفة نفسها كان آخرهم منير المصاب باطلاقتين في خاصرته وزنده الأيمن.

والثالثة في تلك الليلة المشؤومة حين نادى منير

بصوته المتقطع: «ماء...ماء...اسقوني ماء»، وكانوا جميعهم نائمين او متناومين حتّى مزهر الذي طالما اعتنى به فنظّف جرحه باستمرار وساعده على قضاء حاجته الافراغية في كلّ مرّة على الرغم من اصابته وحركته الصعبة على كرسيه المتحرك فقد ملّ من كثرة طلباته، وحين لم يجد محمد فندم احداً يلبّي طلبه الجديد في هذه الساعة المتأخّرة من الليل جاهد آلامه وضعف رجليه الممددتين على طول الأيام والليالي واستطاع ان يخطو بصعوبة بالغة نحو اناء الماء فملأ قدحاً وقدّمه اليه قائلاً:

- اخي منير، انت تدري ان حركتي صعبة مؤذية، فاذا كنت تريد شيئاً آخر فقل لي الآن قبل ان اعود.

- شكراً...لا اريد شيئاً.

- تصبح على خير.

وما كاد يضطجع على فراشه ويرفع رجليه الى السرير حتى صاح منير:

- محمد...اريد ماء.

ولمّا نظر اليه بعتاب واستنكار ألفاه مبتسماً ابتسامة غريبة، فانفجر محمد فندم باكياً وهو يقول: «منير...انت تعرف انني انقطّع الآن من الألم، وقد قلت لك قبل ان اصعد السرير هل تريد شيئاً فقلت لا...فلما ذا تفعل هذا...لماذا».

وبقي مبتسماً بصمت دون جواب. حتى إذا مرّت دقيقتان عاود طلبه «محمد...اريد ماء». وذُهل صاحبنا من هذا الوضع الغريب فأعاد عتابه الدامع. ومنير ساكت. فهمّ بالنزول ثانيةً لكن مزهر قال بصوت غاضب:

دعه يا محمد...ما كفاه ايذاؤه لنا بطلباته والحاحه حتّى إذا لم يجد من يهزأ به انتقل اليك.

ـ لكنّه عطشان يا مزهر.

ـ ما عليك به، خلّه يولّي.

ـ لا استطيع.

ـ اذا نزلت اليه، لن اكلمك ابداً.

كان منير مبتسماً بوجهه الأبيض الشاحب وجلده ملتصق بعظامه من شدّة النحافة التي سببتها اصابته اثناء قمع الانتفاضة فنزف اكثر دمه على مدى اربعة عَشَر يوماً لم يذق فيها الاّ الحليب حتّى اذا تفاقمت حالته كسر اهله خوفهم وسلّموا ولدهم الى المستشفى معترفين بأنه مدنيّ اصيب برصاص الجيش.

وبعد نصف ساعة نام محمد فندم، ولم يستيقظ الاّ عند الصباح، فرأى الأطباء والمضمّدين حول سرير منير متأفّفين كعادتهم كلّ مرة قبل أنْ يرفع احدهم كمّامة الأوكسجين قائلاً: «هذا هو...انتهى».

وبكى صاحبنا حين رآه ميّتاً، والتفت الى مزهر قائلاً: «لماذا منعتني من تلبية آخر طلب له في الحياة» فانفجر مزهر بالبكاء...ثمّ جاء ابو منير فصرخ المرضى في وجهه:

«لماذا يا قاسي...مات ابنك وهو يتحسّر على رؤيتك كان يُلحّ ويُلحّ وانت لا تفكّر فيه، لا خير في دموعك الآن».

ولم يشأ الله له استذكار هذا الموقف الحزين باستمرار كلّما وقع بصره على سريره، فبعد تمام الأيام المئة دخل شخصان من الشرطة وبشّراه بالخروج من المستشفى فطقطق بعكازيه مودّعاً رفقاء السجن وذكرياته، وانزلاه الى الطابق الأرضي بالمصعد فشاهده بعض اقارب المرضى الذين مُنعوا من زيارته فأمطروه بالقُبل والتهاني وهم يرونه واقفاً على قدميه، وعند الشارع وقفت سيارة فأدخلاه فيها واغلقا الباب وركبا امام قرب السائق، فانطلقت تجوب الشوارع بسرعة مخيفة.

* * *

ستة أيام في الطامورة

توقفت السيارة في ساحة مديرية امن الحلّة فأنزله شرطيان وقال له احدهما:

ـ سنتركك في سجن الأمن ستة أيام، ثم نأخذك الى مركز الآمرية في بغداد حتى تكون في حماية الصليب الأحمر الدولي.

ـ حماية الصليب الأحمر! ...حقاً ما تقول، اقسم بالله عليك ان لا تعدني بشيء بعيد الوقوع رحمةً بأعصابي.

ـ ثق بما اقول. هيا.

ودخل باب السجن فكبحته موجة وحشة كئيبة، تشبه هجوم الضباب على وجوه المدن الغافية عند اعتاب الفجر، وكان الظلام شديداً لم يسمح لعينيه الغارقتين بضوء الشمس أن تتعرّف ارجاء المكان الغاص بالوجوه والأنفاس الاّ بعد ربع ساعة.

كان في مكانه لم يجد اية مساحة تتسع لجلوسه الاّ عتبة الباب الداخلية فظل واقفاً وهو يجيل نظراً قلقاً حوله

دون أن يجرؤ على التحديق في وجوه هؤلاء المدفونين في قبور تسمح بالبقاء على قيد الحياة بمضض بالغ. ولم يشعر الاّ بيد تمتد الى يده اليمنى برفق فتسحبه على رؤوس الاشهاد حتى تصل به الى المكان الذي نهض منه صاحبها، فأجلسه قربه على فراشه.

كان سيّداً هاشمياً سُجِن بلا ذنب. فهو طيّب الى ابعد حدود الطيبة مسالم بكلّ ما تعني المسالمة، يصرف وقته للعبادة وعمل الخير وهذه كلّها جرائم في عُرْف جواسيس الجهاز الأمني.

لم تكن تصل المكان أيّة خيوط لأشعة الشمس والأجساد لا يفصل بينها وبين الأرضية الرطبة الاّ بطانيات بالية والزنزانة خالية من ايّ شيء يحرّك الهواء فكاد الحرّ والعرق أنْ يُفقدا وعي صاحبنا لولا تسلية السيد له.

الأيام الخمسة التي قضّاها في هذا السجن عسيرة جدّاً على وصفه وتذكّره بل تكاد تفوق الأهوال التي شاهدها وعجز عن وصفها حين وضعوه على شفير الاعدام، وهو الآن يضع يديه على صدغيه مطرقاً، يحمل كلّ تلك الذكريات المرّة باعياء شديد، وكم انتظر دوره بحذر وهلع كلّ ليلة، وهو يرى وجبات السجناء، كل واحدة مؤلفة من سبعة سجناء أو ثمانيه ينزل بهم رجال الأمن الى اقبية السجن اول

الليل ويُرجعونهم بعد منتصفه وهم اشبه باللحم المفروم المغسول بالدماء حيث يُرونهم تعذيباً لا يمكن أنْ يتخيله عقل انسان.

وفي ليلة اليوم السادس. جَلَس السجناء بعد الصلاة يترقبون بحذر مجيء الجلادين، كلٌّ منهم يظنّ نفسه من ضيوف القبو هذه الليلة. فالتفت محمد فندم بوجه شاحب وعينين ذاهلتين زائغتين الى السيد الذي بجانبه وقال:

ـ هل سبق لك أن انزلوك مثل هؤلاء؟

ـ لا...ولكني انتظر دوري فلا يخرج انسان من هنا حيّاً او ميّتاً الاّ ويستظيفه الجبناء ليلةً واحدة على الأقل.

فابتلع ريقاً هارباً وهو يسأل بخوف:

ـ هل تتوقعهم ينزلون بي وانا على هذه الحال؟

ـ ما بك من اصابات لا يمنع من الاستضافة.

ـ ارجوك لا تمزح معي مزاحاً يقطّع اعصابي.

ـ انا لا امزح، واذا اردت أن اريك من هو اسوء حالاً منك لفعلت.

ـ حقاً؟

ـ قم معي.

ومشيا خطوات بطيئة وطئا فيها اكثر من عشرة احضان حتى انتهيا الى شخص مطروح في الزاوية فهمس

السيد في اذنه اليمنى:

ـ هل ترى هذا؟

ـ لا ارى الاّ الغطاء البالي الذي يتلفّح به.

ـ هذا الرجل ينزلونه كلّ ليلة ويعذبونه اشدّ انواع التعذيب مع انه مصاب بست رصاصات في رجليه، ولو رأيت ظهره لبقيت فترةً لا تطيق الأكل.

وتحرّك الرجل في تلك اللحظة فسقط الغطاء عن ظهره المتآكل الممزّق بالسياط، فصكّ وجهه صاحبنا بكلتا يديه واشاح بوجهه وجسده عن هذا المنظر المقرف. وظل يدعو ساعة والدموع تسيل على خديه عسى أنْ لا يكون من ضيوف الليلة.

ولم يكن من المعذّبين في تلك الوجبة.

وعند صلاة الفجر طالت تضرعاته وادعيته ليكتب الله له الفرج وراح يقسم على الله بحبيبه واهل بيته وهو محترق الأعصاب.

وبعد ساعتين دخل احد رجال السجن وبقي منتصباً امام فتحة الباب الضيقة وفي يده سوط هو قطعة من سلك كهربائي ضخم، وظلّ دقائق يحدّق في الجهة التي افترشها صاحبنا وصديقه السيّد واستمرّ يوزّع بينهما النظرات فهمس محمد فندم باذن جليسه، وقد هرب دمه:

ـ هذ اللـعين يـنظر اليك، تـهيّأ لمـا كنت تـنتظره فـلن تستطيع النوم.

ـ بل انت لن تذوق النوم اما تراه ينظر اليك انت؟

ـ لا، بل انت اقرب اليه مني.

فصاح بتجهّم وتهكّم وعيناه تقطران شرراً وحقدا:

ـ من منكم السعودي؟

وسـرت عـاصفة مـن الرعب والارتـعاش فـي جسـد صاحبنا حتى سيطرت اخيراً على نبرات صوته:

ـ انا...

ـ قُمْ...و...اقترب...

وفرّت عن وعـيه اشـياء عـديدة، والخـوف والخـفقان يستولي عليه بالكامل فنطق بتلجلج:

ـ اذا...اذا اردت ضربي، فافعل...وانا في مكاني...لأنني لا اقدر على السير والنزول.

فقهقه بتشفٍ وخبث قبل أنْ يركّز كلماتٍ بنبرةٍ لا يتبين فيها الصدق من الكذب:

ـ حتى ولو قلت لك انك ستخرج من غير ضـرب؟

ـ صـحيح؟ ...هل...هل انت جادّ معي فيما تقول؟

ـ ايه...

فـنهض بـاضطراب وامسكـه اثـنان مـن يـديه حـتى

أوصلاه الى الباب ليرى ضوء الشمس يُعشي عينيه ويقتحم محاجره بسطوة جميلة جدّاً، ولم يشعر برجلين يقتربان منه بهدوء حتى اذا وصلا قربه سلّما عليه وقالا له كلمات كاد ان ينساها تماماً:

«الحمد لله على السلامة» فأحس بارتياح شديد وهو يغمغم بالردّ.

وتقدّم احدهما الى سيارة قريبة ففتح بابها الخلفي في الوقت الذي اوصله الثاني اليهما بمداراة بارٍ تكلّفها. واخذ الاول عكازيته وقال: «ادخل في السيارة واجلس كما تحبّ ولا تهتمّ بايّ شيء». فلامسه الاطمئنان لأول مرّة.

وخبّت بهم السيارة تلتهم امتار الطريق الواصل بين الحلّة وبغداد فيما راحت عيناه تشربان مساقط الضوء على سعفات النخيل واوراق الأشجار المتمايلة مع الريح وبين فترة واخرى يرى وجوه اناس يمشون في كلّ اتجاه وخلف قسماتهم تاريخ مليء بالصمت والعذاب.

* * *

استراحة في سجن الآمرية

لم يكن ما يرى غير حُلُم طويل يخاف أنْ يصحو منه فيجد نفسه قريباً من الشق المُليء بالجثث او قبالة فوّهات النار او في غصّة شديدة سبّبها شربةُ الماء والرمال. لكنه لم يصح ابداً بل ظلّت الأحداث تتابع بشكل طبيعي جداً فها هو الآن امام واجهة آمرية شؤون الأسرى الأجانب، وما كان يريد أن يشغل نفسه بالبناء الفخم او الحياة المكتضة في شوارع بغداد، بل كلُّ ما يملأ تفكيره وطموحه أنْ تسير عجلة الزمن بسرعة اكبر ليرى النهاية المستحيلة.

وادخل غرفة مرتبة هادئة الألوان فرأى اكثر من شخص فيها ووجهوا له اسئلة سمعها عشرات المرات واجاب عنها مئات المرات وحين انتهى التحقيق (المعروفة تفاصيله مسبقاً) اَمَرَ احدهم رجلاً يرتدي ملابس عسكرية انيقة بأن يأخذه الى السجن فساربه في رواق طويل، وعند منتصف الرواق التفت اليه محمد فندم قاطعاً طقطقة

العكازات ليقول:

ـ الا تنقضي هذه السجون؟

فأجاب ببرود:

ـ لا تخف، إنّ هذا السجن احسن حالاً من السجون السابقة التي (دُشّنْتَ) فيها.

وقد صدق فيما قال، فهذا السجن واجهة معتنى بها امام اللجان الدولية المختصة بالاسرى والمفقودين ليظنّ الزائرون ظنّاً حسناً بسجون العراق.

ووقف عند المدخل وهو يقول:

ـ اذهب الى تلك الحجرة الأخيرة وسترى ثلاثة سجناء سعوديين.

ـ ماذا؟ سعوديين؟ حقاً؟

وتابع طقطقاته التي لا تعرف الاتساق حتى وصل الباب فوجده سهل الفتح فدخل في اللحظة التي اغلق بها العسكري باب المدخل.

كان في الغرفة ثلاثة رجال نائمين على الأرض ففرح لأنه لن يكون وحده، ورأى في زاوية الغرفة باباً يفضي الى حمام ودورة مياه، فقضى حاجته و اغتسل ثم عاد ليرى الثلاثة قد جلسوا مندهشين من فرقعة الماء على الأرضية الاسمنتية فسلم عليهم ورَدّوا عليه السلام والتحيات

مرحبين به كثيراً، وما ان استقرّ به المجلس حتى سأله احدهم:

ـ كيف حالك؟

ـ الحمد لله، هل انتم سعوديون حقاً؟

ـ نعم.

ـ ما الذي جاء بكم الى هنا؟

ـ نحن رعاة اغنام على الحدود مع العراق فدخل قطيعنا داخل الأراضي العراقية وحين تبعناه اعتقلنا. وانت ما الذي جاء بك؟

فراح يقصّ عليهم بتثاقل حكاية السيارة التي استأجرها وهو يتمنّى من اعماقه أن يقول لهم الحقيقة، لكنّه خائف من الآذان الخفيّة المبثوثة في الجدران.

وحيث انتهى قال له احدهم:

ـ هل تدري أنّ الله يحبك، لهذا احضروك هذا اليوم؟

ـ كيف؟

ـ لأن موعد زيارة لجنة الصليب الأحمر الدولي الخاصة بشؤون الأسرى هو اليوم ولو احضروك غداً مثلاً لبقيت هنا شهرين كاملين.

ـ حقا؟ ...الحمد لله. هل هناك امل في...

ـ قل ان شاء الله. مع ان القائمة فيها اسماؤنا فقط، لكن

هناك محاولة نتمنّى ان تنجح.

ـ بالله عليك ما هي؟

ـ اصبر وسوف نرى.

وبعد نصف ساعة حضر العسكري قائلاً باستعجال:

ـ هل تريدون بعض الأشياء من السوق؟ انا نازل الى البيت وسأعود بعد ساعتين.

فأجابه احد السجناء:

ـ نعم نريد هذه السلع المكتوبة على الورقة...لكن نرجوا منك مساعدة اذا لم يكن مانع...

وسكت ليرى تأثير كلامه عليه، فقال بالتفات وهو يكفّ عن فرك يديه:

ـ ما هي؟

ـ أن تضيف اسم هذا الشخص السعودي الى القائمة التي فيها اسماؤنا لمواجهة اللجنة وسوف اعطيك ثمانمئة دينار.

ـ هذا ممكن.

ولم يكن صاحبنا يصدّق شيئاً من هذا الحلم.

* * *

تحقق المعجزة

بعد تمام الساعتين عاد العسكري بالأشياء، ولم يفارقهم الاّ ربع ساعة حتى رجع منادياً بأسماء السعوديين ومعهم محمد فندم، فخرجوا معه الى القاعة الكبيرة لاستقبال اللجنة الدولية. فوجدوا هناك شخصاً حين سلّم عليه صاحبنا عرف انه كويتي فجلس الى جانبه. ثم ادخل افراد اللجنة واجلسوا أمامهم. بعدها قام منهم شخص قصير القامة واعطى كلّ واحد من السجناء بطاقتين مليئتين بالاسئلة «في اي تاريخ اعتقلت؟ ...هل انت مصاب؟ ...ما نوع الاصابة؟ ...هل تريد البقاء في العراق او الذهاب الى وطنك؟ ...الخ».

واجاب محمد فندم على كلّ الأسئلة الاّ واحداً يخص البقاء او الذهاب فقال للمسؤول عن اللجنة:

ـ اذا كان الامام الخوئي في النجف ومدرستي سليمة والطلاب يدرسون بشكل طبيعي دون خوف من اعتقال فأنا افضّل البقاء.

فأجاب بهدوء واقتضاب:

ـ كلّ هذه الأمور لا نطمئنّ لها في مثل هذه الظروف.

ـ اذن فالرجوع الى الوطن. لكن متى؟

ـ سوف نوصل هذه البطاقات الى اوطانكم. فاذا جاءت الموافقة، وأيّدت السلطات صحة المعلومات فسوف نقوم بتسليمكم.

ثمّ نُقِلَ السجناء الى سجن «ابو غريب» فافترق صاحبنا عن السعوديين الثلاثة حيث جعله الحرس في حجرة اخرى مع عدد من الكويتيين والمصريين وبقى هناك اسبوعاً كاملاً ينتظر كلّ لحظة ان يصحو من الحلم بقلق بالغ.

وفي نهاية الإسبوع وصلت برقية فيها اسماء الكويتيين وفي ذيلها اسم: محمد حسن محمد فندم. ولم يمهلوهم ان يتفاعلوا مع هذا الخبر السعيد فقد حضر رجال اللجنة وجرى كلّ شيء بسرعة وذهول.

وعند باب السيارة وجد رفقاءه السعوديين فركبوا والفرح يملأ القلوب والعيون بالنبض المتسارع والدموع المترقرقة.

وما هي الاّ ساعات حتى وصلوا الحدود السعودية عند نقطة «عرعر» فاستقبلهم المسؤولون بحرارة بالغة.

وبعد يوم واحد حلّقت به الطائرة من مطار عرعر الى

الرياض ومرّ عليه الشريط المهول من الذكريات التي لا تصدّق. وفي هذه اللحظة فقط وجد عنده الجرأة ليقرص جسمه في عدّة مواضع ليصدّق أنه ليس في حلم، وتكثّف القرص حتّى صار نهشاً لكنّه لم يصح ابداً، فهو في سكر الواقع ـ المعجزة.

تمّت

٢٢ / صفر / ١٤١٦

* * *

«ربّنا تقبّل مِنّا إنّكَ أنتَ السميعُ العليم»

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

البحر...الاستاذ الكبير ١٣

تصويب القرار ٢١

العالم المجهول ٢٥

ذبول القرحة ٢٩

محاولات فاشلة ٣٥

غربان الجحيم ٤١

الانفجار الكبير ٤٥

فجائع الصواريخ ٤٩

مرتان في وجه الموت ٥٧

الاقتحامات ٦٣

على شفا القبور ٧١

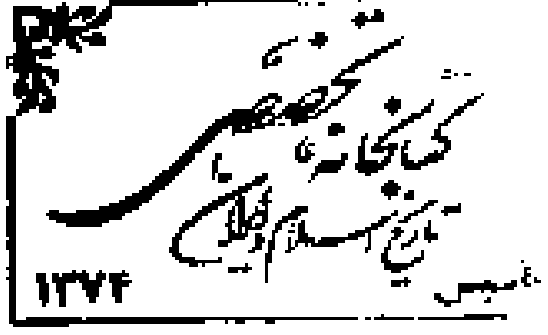

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
شماره ثبت: ۱۳۷۴

في كفّ القدر..........٧٩
الانتشال..........٨٧
عودة البنادق..........٩٥
أنيس في منتصف الليل..........١٠١
أوّل يوم في الصحراء..........١٠٧
ايام اخرى في الأتون..........١١٣
اليوم الحاسم..........١٢١
النصف الثاني من النهار..........١٢٩
المسدس...وارادة الله..........١٣٧
في مستشفى المسيب..........١٤٣
نقطتان من الرحمة..........١٥١
الى المستشفى الجمهوري..........١٥٥
أنيس من السماء..........١٥٩
غرفة العمليات..........١٧١
ذكريات لا تُنسى..........١٧١
ستة أيام في الطامورة..........١٨١
استراحة في سجن الآمرية..........١٨٧
تحقق المعجزة..........١٩٣
الفهرس..........١٩٧